

وسقط صنم الليبرالية



إعداد:
رأفت صلاح الدين

وسقط صنم الليبرالية

إعداد

رأفت صلاح الدين

مقدمة

سنة الله لا تتبدل ولا تتغير ولا تحايي أحداً، فما بُني على باطل فهو باطل، والله عز وجل هو خالق الإنسان، وهو أدري بما يصلحه وما ينفعه في دنياه وآخرته، ومهما ازداد الإنسان في العلوم والمعارف، ومهما اخترع من نظريات، ووضع من قوانين، لإصلاح حال البشر؛ فجهده قاصر، وسعيه مبتور، لأن ما يجهله في هذا الكون أكثر مما يعرفه، وما يغيب عنه أوسع مما يدركه، وهذا ينطبق على كل ما أخرجته قريحة البشر من الإيديولوجيات والتشريعات، ومنها (الليبرالية).

بين عشية وضحاها.. حدث ما لم يكن متوقعاً، وبدأت حبات عقد أعتى إيديولوجية على وجه الأرض في الانفراط حبة بعد أخرى، ومن أهمها - على سبيل المثال - النظام الليبرالي في الاقتصاد، حيث ترجع الأزمة الاقتصادية الجارفة، التي تمرّ بها كثير من دول العالم الآن، في الأساس إلى ترك العنان والحرية المطلقة لبني البشر أن يفعلوا في الأموال والثروات ما يشاؤون، فكانت الليبرالية وتطبيقاتها الاقتصادية هي السبب فيما يمرّ به العالم من أزمة خانقة، وذلك باعترافات أربابها ومنظريها، وتمثل الحلّ عند أكثر الاقتصاديين الغربيين في دراسة الاقتصاد

الإسلامي وتطبيقه وتجربته عندهم.

ولأجل هذه الأزمة وغيرها أصبحت هناك جرأة على نقد الليبرالية، بعدما كان من الممنوعات، أو المهلكات، الحديث الناقد بأقلّ القليل عن الليبرالية، وكأنّها أقدس إيديولوجية عرفها بنو البشر، حيث كان - ولا يزال - من السهل على الليبراليين من بني جلدتنا أن يقدحوا في كلّ ما هو مقدّس لدى المسلمين، لكن عندما يمسّ النقد الليبرالية فإنّ أسلحة الغضب والإنكار تُرفع في وجه المتحدث مهما كانت مكانته، ويجد نفسه مهدداً باتهامات بالجهل والتخلّف والإرهاب وغيرها.. جاهزة مشرعة في وجهه.

ولعلّ ذلك يدفعنا دفعاً إلى سبر أغوار (الليبرالية)، لمعرفة حقيقتها ونشأتها وآلياتها وآثارها، ومن يقف وراءها، ومن يتبعها في عالمنا العربي وأهدافهم، ثم نعرف كيف سقط ذلك المارد، وكيف هوت تلك الأسطورة التي لن يكون لها - على الأقلّ - تلك الهيبة والهيمنة والاحترام والتقدير لدى منظّريها قبل شائعيها، مما يُعدّ أعظم مكسب للإسلام والمسلمين.

وسأتناول ذلك في المحاور الآتية:

المقدمة

المبحث الأول: تعريف الليبرالية.

المبحث الثاني: نشأة الليبرالية.

المبحث الثالث: مراحل الليبرالية.

المبحث الرابع: الليبرالية في بلادنا العربية.

المبحث الخامس: دور الليبرالية في محاربة الإسلام

المبحث السادس: تهافت الليبرالية.

الخاتمة: موقف الإسلام من الليبرالية.

المبحث الأول

تعريف الليبرالية

الليبرالية مذهبٌ رأسماليّ، يدعو إلى الحرية المطلقة في السياسة والاقتصاد وكلّ مناحي الحياة، ويدعو إلى قبول أفكار الآخر وأفعاله، حتى لو كانت متعارضة مع أفكار المذهب وأفعاله.

١ - تعريف الليبرالية:

وقد اختلفت وتعددت تعريفات الليبرالية، وذلك بسبب أنّ منظّريها وأتباعها لم يتفقوا على آلية محددة لتطبيقها في الواقع.

فالليبرالية (LIBERALISME): كلمة لاتينية، اشتُقت من كلمة LIBER التي تعني الحرّ، وغير المقيد بقيود، وغير الملتزم بأي التزام، والليبرالية الحرية المطلقة، غير المقيدة بقيود.

جاء في الموسوعة الميسرة: الليبرالية مذهبٌ رأسماليّ ينادي بالحرية المطلقة في الميدانين الاقتصادي والسياسي.

أي معناها: التحرّر التامّ من كلّ أنواع الإكراه الخارجي، دولة، جماعة، فرداً؛ ثمّ التصرف وفق ما يُملّيه قانون النفس ورغباتها، والانطلاق والانفلات نحو الحريات بكلّ صورها: مادية، سياسية، نفسية،

ميثافيزيقية (عقدية).

كما جاء في موسوعة لالاند الفلسفية تحت مادة (LIBERALISME): المعنى الفلسفي الحقّ للحرية هو الانفلات المطلق، لا بغياب النزوع، بل بالتزفع فوق كلّ نزوع وكلّ طبيعة (ج. لاشلييه).

وقد عرّفها المفكر اليهودي (هاليفي) بأنها: الاستقلال عن العلل الخارجية، فتكون أجناسها الحرية المادية، والحرية المدنية أو السياسية، والحرية النفسية، والحرية الميثافيزيقية (الدينية).

وعرّفها الفيلسوف الوجودي (جان جاك روسو) بأنها: الحرية الحقّة في أن نطبّق القوانين التي اشترعناها نحن لأنفسنا. وعرّفها الفيلسوف (هوبز): بأنها غياب العوائق الخارجية التي تحدّ من قدرة الإنسان على أن يفعل ما يشاء.

وهكذا، نرى أنّ تعريفات الليبرالية تُجمّع على أنّها انكفاء على النفس مع انفتاح على الهوى؛ بحيث لا يكون الإنسان تابعاً إلا لنفسه، ولا أسيراً إلا لهواه.

ويذكر في الموسوعة الفلسفية العربية: أنّ الليبرالية في الفكر السياسي الغربي نشأت وتطورت في القرن السابع عشر، وأنّ لفظتي (ليبرالي) و (ليبرالية) لم تكونا متداولتين قبل بداية القرن التاسع عشر،

وأنّ كثيراً من الأفكار الليبرالية موجودة في فلسفة (جون لوك) السياسية، فهو أول الفلاسفة الليبراليين وأهمهم.

وبحسب هذه المفاهيم والمعادلات والنتائج يمكن أن نصل إلى تحديد أدقّ لحقيقة الليبرالية بأنها تعني: الاستقلالية التامة للفرد، بالانكفاء على النفس، والتحرّر من سلطة الغير، ثم الانفتاح على قوانين النفس والانفلات معها.

٢ - تعريف الليبرالية بحسب المجال:

والحقيقة أنّ التعريف الدقيق لهذا المصطلح هو تعريفه بحسب المجال الذي يُعرف من خلاله، فينقسم تعريفها على النحو الآتي: الليبرالية السياسية، والليبرالية الفكرية، والليبرالية الدينية، والليبرالية الاقتصادية.. وهكذا، وهي طريقة موسوعة لالاند الفلسفيّة في تعريف الليبرالية.

فالليبرالية السياسية: تقوم على التعددية الإيديولوجية والتنظيمية الحزبية، ولم تظهر هذه الليبرالية إلا في أوائل القرن ١٩، وأول استخدام كان في إسبانيا في عام ١٨١٢م، ولكنها قامت كإيديولوجية على أفكار ونظريات تنامت قبل ذلك بـ ٣٠٠ عام، حيث نشأت الأفكار الليبرالية مع انهيار النظام الإقطاعي في أوروبا، والذي حلّ محلّه المجتمع الرأسمالي أو (مجتمع السوق).

وبحلول الأربعينيات من ذلك القرن كان المصطلح قد صار واسع الانتشار في أوروبا؛ ليشير إلى مجموعة من الأفكار السياسية المختلفة، ولكن في إنجلترا انتشر المصطلح ببطء برغم أنّ الأعضاء ذوي الشعر المستعار Whigs (أعضاء حزب بريطاني مؤيد للإصلاح) أطلقوا على أنفسهم (الليبراليون) في الثلاثينيات من القرن ١٨، وكانت أول حكومة ليبرالية هي حكومة جلاستون Gladstone التي تولّت الحكم عام ١٨٦٨م^(١).

والليبرالية الفكرية: تقوم على حرية الاعتقاد، أي حرية الإلحاد، وحرية السلوك، أي حرية الدعارة والفجور، وعلى الرغم من مناداة الغرب بالليبرالية والديمقراطية فإنهم يتصرفون ضد حريات الأفراد والشعوب في علاقاتهم الدولية والفكرية، وما موقفهم من الكيان اليهودي في فلسطين، ومن العراق، وموقفهم من قيام دول إسلامية تحكم بالشرعية، وموقفهم من حقوق المسلمين، إلا بعض الأدلة على كذب دعواهم^(٢).

والليبرالية الفكرية تُعدّ أساساً لليبرالية السياسية، فهي تؤصل منذ

١- هبة رءوف عزت، الليبرالية النشأة والتطور، موقع إسلام أون لاين.

<http://www.islamonline.net/servlet/Satellite>

٢- ينظر للاستزادة: الموسوعة السياسية، (٥ / ٥٦٦).

نشأتها للفوضى الفكرية، ولهذا فإنّ كلّ ما يُبنى فوقها من منشآت سياسية يؤول أمره إلى الفوضى، وثورة الليبرالية على الدين وثوابته لا تلبث أن تتحول إلى ثورة على السياسة ومسالكتها.

والليبرالية الدينية: أو (الليبرالية الميتافيزيقية)، كما يسمّونها أحياناً، لتكون عاراً على كلّ من يتبنّى الليبرالية ممن يدّعي احترام المبادئ الإنسانية فضلاً عن القيم الإسلامية.

تسعى الليبرالية الدينية، أو التعددية الدينية، إلى نمط من الفكر الديني، لا يتقيد بأية قواعد، ولا يستند إلى أية مرجعية، بل يستند إلى حرية الإنسان في اختيار الإله الذي يهواه، ولو عبد كلّ يوم إلهاً، ولو لم يعبد إلهاً على الإطلاق إلا هواه.

والليبرالية الدينية تقوم على فكرة (نسبية الحقيقة)، وتروج لمقولة: «لا دين على الإطلاق يحتكر الصواب».

ولهذا كانت الليبرالية الدينية دائماً هي الأداة الخادمة والدافعة لبقية الليبراليات، السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، لأنّ الليبرالية الدينية تخدم أولاً القواعد، وتزيل الحواجز، لينطلق (البناءؤون الأحرار) بعدها في تشييد أبنية الضلالة على أسس الغواية، كلّ ذلك على خلفية إلغاء الخصوصيات الثقافية، وتدمير مفهوم (المقدّس)، وتغييره بمفهوم (النسبية) في الحقائق والعقائد والقيم لإزالة الثبات عنها، حتى لا يبقى

هناك مجال لأصول تُبنى عليها الهوية، أو ترتكن إليها القيم.

وتأتينا الليبرالية الاقتصادية (الرأسمالية): بوجهتها الانتهازية، ونكهتها اليهودية، إذ تقوم - منذ وضع أسسها (آدم سميث) (١٧٢٣م - ١٧٩٠م) - على المصلحة أو (الأناية)، فهي المحرك الوحيد للنشاط الإنساني - كما يقول -، ولا ينبغي أن يوضع أمام المصلحة أي قيد، وهو ما عبّر عنه بقوله: «دعه يعمل، دعه يمر»؛ فالاقتصاد لا ينظمه، حسب النظام الرأسمالي، إلا قانون العرض والطلب، وقوانين الطبيعة البشرية، دون أي قيود أو ضوابط^(١).

وتقوم فكرة الليبرالية الاقتصادية على منع الدولة من تولّي وظائف صناعية، ووظائف تجارية، وعلى أنها لا يحقّ لها التدخّل في العلاقات الاقتصادية التي تقوم بين الأفراد والطبقات أو الأمم.

ويُعدّ (آدم سميث) هو المنظّر لهذه النظرية الليبرالية الاقتصادية، فقد افترض أنّ المحرك الوحيد للإنسان، والدافع الذي يكمن وراء كلّ تصرفاته الطوعية، هما الرغبة في خدمة مصالحه وإرضاء ذاته، و (سميث) هنا يشارك (هوبز) في نظريته إلى الإنسان بوصفه (كائنًا أنايياً).

واعتبر (سميث) أنّ الاقتصاد تنظّمه قوانينه الخاصة، كقانون العرض

١ - د. عبد العزيز كامل، دعاة الليبرالية! عقول محتلة، أم ولاءات محتلة؟، مجلة البيان، العدد ٢١٩.

والطلب، وقوانين الطبيعة الإنسانية، وكانت لديه قناعة تامة بأن هذه القوانين، إذا ما سُحِّح لها بأن تأخذ مجراها دون تدخّل من الدولة، ستقوم بمهمتها على أكمل وجه، فتخدم مصلحة المجتمع ككل، وتخفّف رغبات الفرد، وقد يبدو أنّ هذه القوانين جاءت نتيجة تصميم مصمّم، أو أنّها تشكّل نظاماً غائياً متعمداً، ولكنها ليست كذلك، أو على الأقلّ هذه هي قناعة (سميث)، وهكذا أدخل (سميث) مبدأ (الاقتصاد الحرّ: تنافس حرّ، في سوق حرة) في مفهوم الليبرالية^(١).

والليبرالية بوصفها نظرية في السياسة والاقتصاد والاجتماع لم تتبلور على يد مفكّر واحد، بل أسهم عدة مفكّرين في إعطائها شكلها الأساسي، ففي الجانب السياسي يُعَدّ جون لوك (١٦٣٢م - ١٧٠٤م) أهمّ وأول الفلاسفة إسهاماً فيها، وفي الجانب الاقتصادي آدم سميث (١٧٣٢م - ١٧٩٠م)، وكذلك كان لكلّ من جان جاك روسو (١٧١٢م - ١٧٧٨م) و جون ستيوارت مل (١٨٠٦م - ١٨٧٣م) إسهامات واضحة.

١- أبو سارة، نظرة في الليبرالية من الداخل، موقع ليبرالي،

المبحث الثاني

نشأة الليبرالية

كثرت استعمال الكلمة في أوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وهما قرنا الصراع بين الكنيسة (السلطة الكهنوتية) ورواد العلوم المادية والمكتشفات العلمية.

فقد كانت الكنيسة تطارد علماء المادة ومكتشفي خصائصها في كلِّ بقاع أوروبا، ولم تكن تسمح لأحد بالخروج عن منهجها، فحين أتى جاليليو وزميلاه بنظرية (كروية الأرض) بالأدلة والبراهين المادية، قامت قيامة الكنيسة، وطاردت الثلاثة، فمنهم مَنْ قُتِلَ، ومنهم مَنْ أثر السلامة ورجع عن نتائجه، وكذَّبها ظاهراً، ومنهم مَنْ سلخته الكنيسة ونزعت جلده حياً حقيقة وواقعاً.

فالحرية التي أرادها هؤلاء القوم هي الحرية من (تسلُّط الكنيسة) على الأفكار والمكتشفات، فالعلماء وعامة الناس كانوا مضطهدين في أفكارهم، وفي ممتلكاتهم، وفي أزواجهم، وفي أولادهم وبناتهم، وفي تشريعاتهم وتقنينهم، حتى فيما يأكلون ويشربون، اضطهاداً له جذور يعود امتدادها إلى أكثر من ألف عام.

وكان هذا الاضطهاد مبنياً على انحراف عقدي، يتلخص في أنَّ

عيسى (عليه السلام) هو أحد الأقانيم الثلاثة للإله - في اعتقادهم - ، وأنه صاحب الصلاحية المطلقة في الكون، وأنه وهب تلك الصلاحيات إلى الكنيسة، فهي وريثة المسيح، ولها ما كان لعيسى من القداسة والسلطان^(١).

أراد الغرب التحرّر من (تسلط الكنيسة) التي ظلمتهم في كلّ روافد الحياة، فبدأ الفكر الليبرالي في مرحلته المبكرة داعياً إلى (حقّ التمرد) ضد الحكومات التي تقيّد الحريات، ولهذا أوحى الأفكار الليبرالية بالثورة الإنجليزية عام ١٦٨٨ م، والأمريكية عام ١٧٧٥ م، والفرنسية عام ١٧٨٩ م، وأدت هذه الثورات إلى قيام حكومات تعتمد على دساتير تقدّس حقّ الإنسان في الحرية الشخصية بأوسع دوائرها، دون التزام تجاه شيء، إلا القوانين المصوغة أصلاً لحماية الحريات الشخصية^(٢).

من هنا ظهرت (الليبرالية الغربية)، والتي تعني حقّ الفرد في الحياة كما يريد دون التقيد بأي قيد أو شرط، ويعبرون عن ذلك بقولهم: «دَعَهُ يفعل ما يشاء، ويُمُّر من حيث يريد»، ولا شك أنّ هذه المطالبة

١ - د. خادم حسين إلهي بخش، الليبرالية تعريفها وتاريخها، موقع صوت الحق.

http://www.soutulhaq.net/Show_archiv.php?mcid=1m&id=45

٢ - د. عبد العزيز كامل: دعاة اللبلة! عقول محتلة، أم ولاءات محتلة؟، مجلة البيان، ع ٢١٩.

جاءت للتحرّر من قيود الكنيسة التي حرّفت الإنجيل، وأخرجته من وحي إلهي إلى كلام بشري.

ولقد قامت حركة (التنوير) الأوروبية وفق تسلسل مرحلي تلقائي؛ بدءاً من العلمانية ثم الليبرالية وأخيراً الديمقراطية، بحيث لا يمكن عزل أي مرحلة منها عن الأخرى، أو تجاوز اللاحقة منها السابقة، فكانت بداية النهضة الأوروبية مع حركة (العلمنة)، والتي تعني تحرّر العقل العلمي من سلطان الكنيسة الجائر، وإعفاءه من الالتزام بالولاء لما يتناقض مع أولى بديهياته، ونادت بإطلاق حرية العقل في التجريب والملاحظة بعيداً عن المسلّمات الأولية المتناقضة في النصوص الدينية، ولم يكن ذلك يعني التملّص من الإيمان الديني عند معظم العلمانيين، بل كانت حركتهم موجّهة نحو تخليص العقل من سلطان الكنيسة لعدم إمكان الجمع بينهما، ومن ثمّ عزل الإيمان الغيبي (الميتافيزيقا) عن الواقع التجريبي المحسوس.

بناءً على التسلسل المرحلي السابق ذكره؛ فإنّ الليبرالية الاقتصادية والإيديولوجية لم تنشأ في الغرب إلا بعد شيوع العلمنة وتخليص العلم من سلطان الكهنوت، وهكذا فقد كان من الطبيعي أن تثور العقلية العلمانية على إيديولوجيا التسليم بالمطلق، لتمنح العلم صفة (النسبية)، وتزامن ذلك مع تطلّع الفرد للتحرّر الاقتصادي من نير الإقطاع،

وتحالف البورجوازية الناشئة مع الطبقة الكادحة التي أصبحت أكثر وعياً وثقافة، مما أدّى إلى تقلّص سلطات الإقطاعيين ومنح الطبقات الدنيا حرية العمل والتملّك.

على إثر ذلك التغير العقلي والاجتماعي في المجتمع الأوروبي؛ نشأ (النظام الديمقراطي) كتطور تلقائي ليحلّ بديلاً عن نظام التوريث الإقطاعي الملكي، وما كان ذلك ليحدث لولا تغلغل الفكر العلماني الليبرالي في المجتمع، والذي أشاع مبادئ الحرية الفردية وحقّ تقرير المصير، مما أدّى إلى تدخل الأفراد في انتخاب السلطة الحاكمة، ومن ثمّ نشوء (النظام الديمقراطي) القائم على الاقتراع ورأي الأغلبية^(١).

على الرغم من أنّ الليبرالية عادة ما تُنسب إلى الفيلسوف الإنجليزي (جون لوك) كما أسلفنا، فإنّ (جون لوك) كان يهدف في الأساس من أفكاره السياسية إلى التحرر من سلطات الكنيسة السياسية، وما رسخته من أفكار حول نظرية التفويض الإلهي للملوك، والتي نظر لها السير (روبرت فيلمر) في كتابه (دفاع عن السلطة الطبيعية للملك)، والذي ذهب فيه إلى أنه «على من يؤمنون بأنّ الكتاب المقدس منزل من عند الله أن يسلموا بأنّ الأسرة الأبوية وسلطة الأب أقرهما الله،

١ - أحمد دعدوش، الليبراليون العرب هل هم حقاً ليبراليون؟، مجلة البيان، العدد

وانتقلت هذه السيادة من الآباء إلى الملوك».

ومن أجل دحض آراء (فيلمر) هذه ذهب (لوك) إلى تصوّر أنّ الأفراد في (الحالة الطبيعية) يولدون أحراراً متساوين (وهذه هي نقطة الانطلاق في المذهب الليبرالي كله)، وأنه بمقتضى العقل توصّل الناس إلى اتفاق (عقد اجتماعي) تنازلوا فيه عن حقوقهم الفردية في القضاء والعقاب للجماعة ككل؛ وعلى هذا تكون (الجماعة) هي السيد أو (الحاكم) الحقيقي؛ وهي تختار بأغلبية الأصوات رئيساً أعلى ينقّذ مشيئتها.

وكان (فولتير) من أشهر زعماء الليبرالية في فرنسا، والذي يعد تلميذاً خالصاً لـ (لوك) من الناحية الفلسفية البحتة، ولكنه يتجاوزها من حيث القدرات الأدبية في التأثير، ونقده الحاد، وسخريته اللاذعة، وكانت قضية (فولتير) الرئيسة هي تحرير العقلية الأوروبية تماماً من (المسيحية الثالوثية) بعقائدها ومفاهيمها وقيمها؛ وهكذا كان يصرخ بعنف وسخرية: «إنّ لدي مائتي مجلد في اللاهوت المسيحي؛ والأدهى من ذلك أنني قرأتها وكأني أقوم بجولة في مستشفى للأمراض العقلية».

كما يُعدّ (جون ستيوارت مل) منظر الليبرالية الأكبر، والذي اهتم في كتابه عن الحرية بشرحها شرحاً وافياً، وقد حدّد الغرض من كتابه بأنّه تقرير المبدأ الذي يحدّد معاملة المجتمع للأفراد، ومضمون هذا المبدأ

هو أنّ الغاية الوحيدة التي تبيح للناس التعرّض بصفة فردية أو جماعية لحرية الفرد هي حماية أنفسهم منه؛ فإنّ الغاية الوحيدة التي تسوّغ ممارسة السلطة على أي عضو من أعضاء أي مجتمع مُتَمَدِّين ضد رغبته هي منع الفرد من الإضرار بغيره.

أما إذا كانت الغاية من ذلك هي الحيلولة دون تحقيق مصلحته الذاتية، أدبيّة كانت أم ماديّة، فإنّ ذلك ليس مسوّغاً كافياً؛ إذ إنه لا يجوز مطلقاً إجبار الفرد على أداء عملٍ ما، أو الامتناع عن عملٍ ما^(١).

دور اليهود في ترسيخ الليبرالية:

لليهود دور أساسي في ترسيخ الفكرة الليبرالية في المجالات الغربية: السياسية والاقتصادية والفكرية، قد لا يكون اليهود هم من ابتدعها، فالأقرب أنّها ابتدعت لتلبية حاجة نفسية وثورة على كبت مطلق، لكن اليهود أحسنوا استغلال هذه الحاجة والثورة، بما يحقق أهدافهم، على حين غفلة.

وفي البروتوكول الأول من (بروتوكولات حكماء صهيون) وردت كلمة (الليبرالية) بما يبيّن أنّ الفكرة ليست إلا غطاء لأهداف حُدّدت

١ - محمد إبراهيم مبروك، الإسلام الليبرالي أو الضوء الذي يخفي الحقائق، مجلة البيان، العدد ٢١٩.

سابقاً.

ينطلق اليهود في ترسيخ الفكرة الليبرالية من فُهم نفسيات الشعوب، من حيث سيطرة العاطفة والسطحية على شعورها، وضعف إدراكها لخفايا الأمور، واغترارها بالظاهر، وعدم البحث فيما وراءه، ومن ثمّ فهم مهيوون لتقبل كلّ فكرة ظاهرها الرحمة وإن كان باطنها العذاب، لكنهم لا يفقهون ذلك الباطن، وليس لهم إلا الوقوف على الظاهر.

وقد اتخذ اليهود هذه الفكرة وسيلة لهدم كلّ الحكومات الأرستقراطية الملكية القائمة الثابتة الحاكمة حكماً مطلقاً، واستبدلوا بها حكومات غير ثابتة متغيرة على الدوام، ذات سلطة محدودة، بدعوى تحقيق الليبرالية، التي يدركون يقيناً أنّها لن تكون خيراً من الملكيات والحكومات ذات السلطات المطلقة، إن لم تكن شراً منها، لكن كان لا بد من الترويج لها من أجل هذا الهدف، وهو إزالة الأنظمة التي تعوق خطط الصهيونية اليهودية الماسونية في الوصول إلى الحكم.

وهم يعلمون جيداً إخفاق الليبرالية في تحقيق الأهداف المروّجة لها، فقد ورد في (برتوكولات حكماء صهيون) ما يأتي: «لما كانت الحرية السياسية فكرة مجردة عن الواقع؛ فمن الفرض اللازم معرفة سبيل تسخيرها من أجل السيطرة على الجماهير، وضمتهم إلى حزبنا، ويقتضينا

ذلك أن نقدّم الطّعم الذي يوقعهم في شباكنا، وحينئذ يسع حزبنا أن يقضي على الحزب الآخر المنافس له، ويكون النصر لحزبنا محققاً ومؤزراً، لأنّ المنافس لنا مخدّر بفكرة الحرية التي جعلته ينزل عن كثير من سلطاته، وهذا - دون شك - فاتحة انتصارنا وهزيمة منافسنا».

«الرّاع، أو الجمهور، قوة همجية، تؤكّد كلّ تصرفاتها هذه الهمجية، وعندما يتمتع الرّاع بالحرية تظهر الفوضى التي هي قمّة الهمجية»، «كنّا أول من نادي في العصور الغابرة بكلمات: الحرية، والمساواة، والإخاء، فاجتذب النداء الناس، وأخذوا يهتفون بها، ويرددونها في كلّ أقطار الأرض تردّد البيغاء، دون فهم أو إدراك أو شعور، وأدى بهم الهتاف البيغائي إلى عرقلة التقدّم الإنساني في العالم، وحرمان الفرد من حريته الذاتية الأصيلة التي كانت في مأمن من عبث الجماهير.

وأدعياء العلم والفطنة - من الغويم - لم يفهموا مدلول هذه الكلمات، ولم يتبينوا التناقض فيما بينهنّ في المعاني، ولم يفتنوا إلى ما في مدلول كلٍّ منهنّ من خلاف، وفاتهم إدراك الاختلاف في أصل الطبيعة نفسها، إذ ليس فيها مساواة قط، كما أنه ليس فيها حرية أبداً، والطبيعة هي نفسها التي أوجدت الفروق في الأذهان، والأخلاق، والطاقات، والكفايات، وجعلت هذه الفروق ثابتة ثبات الخضوع لها فيما أوجدت من سنن وقوانين».

وإذا كان الأمر على هذا النحو؛ فلم إذن الترويج للحرية
(الليبرالية)؟

الجواب: لإزالة الأنظمة السائدة، من حكومات ملكية أرستقراطية
دينية، وفتح الباب لتغييرها كلما دعت الحاجة والمصلحة الصهيونية
الماسونية اليهودية.

إذن؛ اليهود كانوا وهم يروجون لليبرالية يعلمون أنها شعار أجوف،
ليس وراءها أية فائدة للجماهير، بل تُفاقم مشكلاتهم، وتزيدها حرجاً،
لكنها سبيل لتحقيق أهم أهداف اليهودية الصهيونية، وهو إزالة
الحكومات القائمة إلى الأبد، ثم السيطرة على الحكومات البديلة من
خلال النظام الديمقراطي، ومن هنا أطلقوا تلك الشعارات، ونادوا بها،
وصدّقها الغوغاء والرعا، وتبنّوها، وصاحوا بها، وهم لا يدركون
حقيقتها، ولا ما فيها من تناقضات، واختلافات، ومعارضة لأصل
الطبيعة البشرية^(١)!

لذا دخل اليهود في اللعبة، وخصوصاً في الثورة الفرنسية عام
١٧٨٩م، فوسّعوا مفهومها، حتى شمل نقض كلّ ثابت في الحياة، بما في
ذلك: الإله، والإنسان، والأفكار، والمعتقدات، والسلوكيات.

١- أبو سارة، نظرة في الليبرالية من الداخل، موقع ليبرالي.

فدارون: بنظرية التطور نفى وجود (إله) خَلَقَ الإنسان، بل نفى خَلَقَ الإنسان على هذه الهيئة الإنسانية، وإنما بِنَيْئِهِ هذه مَرَّتْ بالعديد من المراحل - في نظره -، فلم يكن الإنسان إنساناً في تلك المراحل، ويرى أنه يجب التحرر من أنّ الله خلق الإنسان.

وفُرويد: هزّ ثوابت ممارسة الجنس، وأَوْهَمَ الأوروبيين أنّ العقد النفسية تنشأ من الكبت الجنسي، ووَضَعَ القيود الشرعية على ممارسته، كتحریم ممارسة الجنس مع الأمّ، أو مع الأخت، أو مع البنت، وأنّ التحرر من هذه القيود يحرّر الإنسان من العقد النفسية.

وهنري بُرجِسُون: صاحب النظرية الأخلاقية المعيّنة، جزم بأنّ (الإله) وَهَمَّ اختلقته المجتمعات البشرية، لإيهام الفرد المتمرّد على التشريعات الاجتماعية، وأنه الحارس الأمين يعاقب مَنْ ينتهكها، يجب على البشرية التحرر من وَهَمِ (الإله) ومعاقبته^(١).

إدراك بعض الغربيين لمخطط اليهود في استغلال الليبرالية:

قليلٌ فقط من الغربيين في تلك الفترة من أدرك خطورة المخطط اليهودي؛ منهم الملياردير الأمريكي (هنري فورد) صاحب مصانع السيارات الشهيرة باسمه، كان (فورد) قد تعرّض لمؤامرات يهودية كثيرة

١ - د. خادم حسين إلهي بخش: الليبرالية تعريفها وتاريخها، موقع صوت الحق.

لرحزحته عن نشاطاته ونجاحاته المتوالية التي لم تسر وفق أهوائهم؛ نظراً لتعصّبه لبلده أمريكا التي يرى أنّ اليهود دخلاء عليها، فكلف (فورد) مجموعة من الباحثين الأمريكيين لدراسة تاريخ اليهود في بلده، ومصادر قوتهم، وأساليبهم، وطريقة تفكيرهم.. إلخ؛ ليستفيد منها في تعريتهم وفضحهم أمام بني وطنه، فألف له هؤلاء الباحثون كتاباً مهماً بعنوان (اليهودي العالمي)، تضمّن معلومات كثيرة عن اليهود.

وفيما يتعلق بالليبرالية؛ توصّل هؤلاء الباحثون إلى المدة التي استغرقها المخطط اليهودي، حيث قالوا: «لقد تطلّب البرنامج اليهودي واستغرق بالفعل ١٩٠٠ سنة لكي يصل اليهود بالدول الأوروبية إلى مرحلة التبعية والانقياد للمخططات اليهودية كما هو شأنها الآن في الوقت الحاضر، تبعية تامة في بعض الأقطار الأوروبية، وتبعية سياسية في بعضها الآخر، وتبعية اقتصادية فيها كلها، أمّا في أمريكا، فقد حقّق البرنامج اليهودي النجاح نفسه، وتطلّب من الوقت خمسين سنة فقط»^(١).

ويلقي أصحاب الكتاب الضوء على فلسفة هذا المخطط ودور الليبرالية في تحقيقه فيقولون: «إنه عن طريق مجموعة الأفكار التي تدور

١ - سليمان بن صالح الخراشي: الليبرالية.. النبت اليهودي!، ص (١٦٠) -

١٦٢)، موقع صيد الفوائد <http://saaaid.net>

حول فكرة الديمقراطية Democracy حصل اليهود على (انتصارهم الأول) في مجال السيطرة اليهودية على الرأي العام Their First Victory over Public Opinion، وتؤكد البروتوكولات أنَّ الفكرة هي السلاح The Idea is the Weapon، ولكي تكون الفكرة سلاحاً ملائماً لليهود، فمن الضروري أن تكون هذه الفكرة فكرة ضارة فاسدة متعارضة ومتضاربة مع الأوضاع السليمة الطبيعية في حياة الناس، وهذا هو الشأن أيضاً مع النظريات المنطوية على أفكار متعددة في المجالات المختلفة من الحياة.

ومثل هذه الأفكار والنظريات لا يمكن لها أن تكون عميقة الجذور وفعّالة ومقبولة إلا إذا بدت لعقول الناس كأفكار ونظريات منطقية ومتسقة مع مطالب الجماهير، بل ومسرفة في التظاهر بأنها تحقق للجماهير أكبر قدر من مطالبهم وآمالهم في الحياة، وغالباً ما تكون الفكرة الصحيحة غير ملبية للمطالب والآمال الكبرى للناس، وتبدو الأفكار والنظريات السليمة في كثير من الأحيان أمام الناس أفكاراً ونظريات قاسية مخيّبة للآمال، وتبدو كما لو كانت شرّاً على الرغم من أنها تتصف بأنها حقيقة من الحقائق الخالدة.

إنَّ كلَّ ما يترتب وينتج عن مثل هذه الأفكار والنظريات الحقيقية ليس هو الضرر أو الفوضى، ومثل هذه الأفكار والنظريات الحقيقية هي

أول ما يهدف البرنامج اليهودي إلى تخطيطه والقضاء عليه، وجددير بنا أن نلاحظ أنّ الدعوة إلى التحرر والليبرالية يحتلّ مكان الصدارة في البرنامج اليهودي الذي تتحدث عنه البروتوكولات، إذ نجد أنها تقول بالحرف الواحد: «لتحقيق السيطرة على الرأي العام من الضروري أولاً إرباكه»، والحقيقة واحدة، ولا يمكن إرباكها، ولا يصح إلا الصحيح، ولا توجد حقائق غير صحيحة، وإن لم تكن الحقيقة حقيقة فهي الخطأ بعينه، ويستحيل أن يتصف شأن من الشؤون بأنه حقيقة إذا كان خاطئاً.

كيف سيربك اليهود الحقيقة؟ إنهم يعتمدون في ذلك على هذه (الليبرالية) الزائفة، ولكنها جذابة، تستهوي الجماهير، وتروق لهم برغم زيفها، ولقد حقّق اليهود لفكرة الليبرالية الذبوع والانتشار بسيطرتهم على دور النشر والإعلام وأجهزة النشر والإعلام على نطاق واسع في أمريكا، بسرعة أكبر بكثير من سرعتهم في ذلك في البلاد الأوروبية، ومن الممكن القضاء على هذه الليبرالية الزائفة بسهولة؛ لأنها لا تمتّ إلى الحقيقة بأي صلة من الصلات الحقيقية، إنها خطيئة كبرى، وللخطايا أكثر من ألف شكل وشكل، وأكثر من ألف صورة وصورة.

ولنأخذ أمة أو حزباً أو مدينة أو مؤسسة، ولنفترض أنّ سُمّ الليبرالية Poison of Liberalism قد سرى في عروق أيٍّ من

هذه المؤسسات؛ سنجد أماناً أنّ كلاً منها قد انقسم وتمزّق إلى عدة أقسام، وعدد من الشيعة لا ينقص عن اثنين، ويجوز أن يزيد على ذلك في كثير من الأحيان، وذلك عن طريق بثّ أفكار جديدة، وتقديم تعديلات للأفكار القديمة، وهذه الخطة السوقية الشريرة معروفة تمام المعرفة لدى القوى اليهودية التي تسيطر على أفكار الجماهير بصورة خفيّة غير مكشوفة»^(١).

وبمقارنة ما توصّل إليه هؤلاء الباحثون بما جاء في البروتوكول العاشر نجد تطابقاً واضحاً، حيث جاء البروتوكول العاشر: «ولما أدخلنا اسم الليبرالية على جهاز الدولة، تسمّمت الشرايين كلها، ويا له من مرض قاتل، فما علينا بعد ذلك إلا انتظار الحشجة وسكرات الموت، إنّ الليبرالية أنتجت (الدولة الدستورية) التي حلّت محلّ الشيء الوحيد الذي كان يقي الغويم: السلطة المستبدّة. والدستور، كما تعلمون جيداً، ما هو إلا مدرسة لتعليم فنون الانشقاق، والشغب، وسوء الفهم، والمناظرة، وتنازع الرأي بالردّ والمخالفة، والمشاكسة الحزبية العقيمة، والتباهي بإظهار النزوات، وبكلمة واحدة: مدرسة لإعداد العناصر التي تفتك بشخصية الدولة وتقتل نشاطها، ومنبر الثرثارين، وهو ليس أقلّ من

١ - سليمان بن صالح الخراشي: الليبرالية.. النبت اليهودي!، ص(١٦٠ - ١٦٢)، موقع صيد الفوائد.

الصحف إفساداً في هذا الباب، راح ينعى على الحكام خمولهم وانحلال قواهم، فجعلهم كمن لا يرجى منه خيرٌ أو نفع، وهذا السبب كان حقاً العامل الأول في القيام على كثيرين من الحكام، فأسقطوا من على كراسيهم، فأطل عهد الحكم الجمهوري، وتحقق، فجئنا نحن نبدل الحكم بمطية من قِبلنا، ونجعله على رأس الحكومة، وهو ما يُعرف بـ (الرئيس)، نأتي به من عداد مطايانا أو عبيدنا، وهذا ما كان منه المادة الأساسية المتفجرة من الألغام التي وضعناها تحت مقاعد شعب الغويم، بل على الأصح شعوب الغويم»^(١).

١ - بروتوكولات حكماء صهيون، البروتوكول العاشر.

المبحث الثالث

مراحل الليبرالية

١ - الليبرالية الكلاسيكية:

وهي مفاهيم الليبرالية التي ظهرت كرد فعل للاضطهاد الذي لاقاه الأوروبيون في تلك الآونة.

ويُعدّ (جوك لوك) أبرز فلاسفة الليبرالية الكلاسيكية، ونظريته تتعلق بـ (الليبرالية السياسية)، وتنطلق من فكرة (العقد الاجتماعي) في تصوّره لوجود الدولة، وهذا في حدّ ذاته هدم لنظرية (الحقّ الإلهي) التي تنزعها الكنيسة، وقد تميّز (لوك) عن غيره من فلاسفة العقد الاجتماعي بأنّ السلطة أو الحكومة مقيدة بقبول الأفراد لها، ولذلك يمكن سحب السلطة بسحب الثقة منها.

وهذه الليبرالية الإنكليزية هي التي شاعت في البلاد العربية، في أثناء عملية (النقل الأعمى) لما عند الأوروبيين، باسم الحضارة ومسايرة الركب في (جيل النهضة) كما يحلو لهم تسميته.

وقد أبرز (آدم سميث) (الليبرالية الاقتصادية)، وهي الحرية المطلقة في المال دون تقييد أو تدخّل من الدولة، وقد تكونت الديمقراطية والرأسماليّة من خلال هذه الليبرالية، فهي روح المذهبين وأساس تكوينها، وهي مستوحاة من شعار الثورة الفرنسية «دعه يعمل»، وهذا في الحرية

الاقتصادية، و «دعه يمر» في الحرية السياسية^(١).

٢ - الليبرالية الجديدة:

تعود نشأة (الليبرالية الجديدة) إلى منتصف القرن الميلادي الماضي، كردّ فعل لإخفاق (الليبرالية الكلاسيكية) في تجنب العقل الأوروبي تبعات التطرف العقائدي، والذي استفحل مع بروز الحركات الفاشية والقومية، حتى الشيوعية التي خرجت كسابقاتها من رحم الفلسفة المادية، وهي المرجعية الأمّ للعقل الأوروبي الحديث بكلّ أطيافه.

ومع تراجع (الليبرالية الكلاسيكية) التي حُمّلت الكثير من أوزار الحرين العالميتين، بدأت مرحلة جديدة من النقد وإعادة البناء، في محاولة لإنقاذ الثقافة الليبرالية الغربية، فظهرت (الكينزية) كتعديل ضروري وعاجل للاقتصاد الرأسمالي الكلاسيكي ليسمح للدولة بالتدخل وإدارة الأزمات، وهذا يناقض المبادئ التي قامت عليها الليبرالية من الأساس، وهي الحرية المطلقة.

وفي الفلسفة والآداب؛ بدأ المفكرون والنقاد بوضع تصوراتهم المختلفة لمرحلة «ما بعد الحداثة».

١ - عبد الرحيم بن صمايل السلمي: الليبرالية نشأتها ومجالاتها.

وفي السياسة؛ برزت مفاهيم «التكتل» و «الأحلاف» و «الاحتواء».

أما الميدان العلمي؛ فقد شهد انحساراً لنزعة المركزية الأوروبية المتعالية، وبدأ العلماء يدركون أنّ معرفتهم بالكون ما زالت أقلّ كثيراً من تحقيق آمال القرن العشرين في الإحاطة بأسراره^(١).

ثم بدأت (الليبرالية الجديدة) في الزحف نحو السيطرة على المجال الاقتصادي العالمي، فمنذ أكثر من ربع قرن كانت دول مثل: بريطانيا (تاتشر)، أمريكا (ريغان)، تركيا (أوزال)، وأرجنتين (العسكر اليمينيين)، من أوائل الدول التي اتجهت نحو تطبيق النموذج الليبرالي الجديد، ولكن هيمنة النموذج لم تتحقق إلا بعد سقوط الشيوعية وانحيار الاتحاد السوفييتي، فطوال معظم القرن العشرين مثل التصور الاشتراكي التحدي الرئيس للرأسمالية - الليبرالية، سواء على المستوى النظري أو على المستوى التطبيقي^(٢).

ويؤمن الليبراليون المعاصرون بإعطاء الأهمية الأولى لحرية الفرد، غير

١ - أحمد دعدوش: الليبراليون العرب هل هم حقاً ليبراليون؟، مجلة البيان، ع ٢١٩.

٢ - د. بشير موسى نافع: فشل الليبرالية الجديدة يستدعي البحث عن خيارات مختلفة، مجلة العصر.

أنهم يتمسكون بأنّ على الحكومة أن تزيل بشكل فعّال العقبات التي تواجه التمتع بتلك الحرية.

واليوم يُطلق على أولئك الذين يؤيدون الأفكار الليبرالية القديمة: (المحافظون).

ونلاحظ:

أنّ أبرز نقطة في التمايز بين الطورين السابقين هو في مدى تدخّل الدولة في تنظيم الحريات، ففي الليبرالية الكلاسيكية لا تتدخل الدولة في الحريات، بل عليها حمايتها ليحقّق الفرد حريته الخاصة بالطريقة التي يريد دون وصاية عليه، أمّا في الليبرالية المعاصرة فقد تغيّر ذلك، وطلبوا تدخّل الدولة لتنظيم الحريات وإزالة العقبات التي تكون سبباً في عدم التمتع بتلك الحريات.

وهذه نقطة جوهرية تؤكد لنا أنّ الليبرالية اختلفت من عصر إلى عصر، ومن فيلسوف إلى آخر، ومن بلدٍ إلى بلدٍ، وهذا يجعل مفهومها غامضاً كما تقدّم.

وقد تعرف الليبرالية تطورات أخرى في المستقبل، ولعل أبرز ما يُتوقع في الليبرالية هو التطور نحو (العولمة) التي هي طور ليبرالي خطير، فمن دلالات (ليبرالية العولمة) الفكرية: العودة إلى الليبرالية الكلاسيكية كمفهوم، وذلك أنّ من أبرز معالم العولمة: التخفيف من التدخّل

الحكومي في انتقال المال عبر الحدود والأسوار السياسية، وذلك لتحقيق أعلى الأرباح، فقد طُبقت الفلسفة الليبرالية عملياً عن طريق (الشاويش السياسي) الذي يحمي هذه الفكرة القديمة في الضمير الغربي.

لقد أصبح الاقتصاد وسيلة سياسية للسيطرة، ونقل الثقافات الحضارية بين الأمم، ولهذا فالأقوى اقتصادياً هو الأقوى سياسياً، ولهذا اقتنعت الدول الغربية بهذه الفلسفة مع مشاهدتها لآثار الرأسمالية على الشعوب الفقيرة، ومن خلال اللعبة الاقتصادية يمكن أن تسقط دول، وتضعف أخرى.

وجذر العولمة الفكري هو انتفاء سيادة الدول على حدودها ومواطنيها؛ فضلاً عن عدم سيطرتها على النظام الاقتصادي الحرّ الذي كان يطالب به الليبراليون الكلاسيكيون.

يقول رئيس المصرف المركزي الألماني هناس تيتمار، في فبراير من عام ١٩٩٦م، أمام المنتدى الاقتصادي في دافوس: «إنّ غالبية السياسيين لا يزالون غير مدركين أنهم قد صاروا الآن يخضعون لرقابة أسواق المال، لا بل إنهم صاروا يخضعون لسيطرتها وهيمنتها»، وسوف يكون قادة العالم في المرحلة القادمة (العولمة) هم أرباب المال، وسدنة المؤسسات الاقتصادية الكبرى^(١).

١- عبد الرحيم بن صمايل السلمي: الليبرالية نشأتها ومجالاتها. مصدر سابق.

المبحث الرابع

الليبرالية في بلادنا العربية

١ - نقل الفكر الليبرالي إلى العالم العربي:

تُعَدّ الحملة الفرنسية على مصر بداية تاريخ الليبرالية فيها، بل في بلاد الإسلام، حيث بدأ الأمر بهزيمة عسكرية، أعقبتها هزيمة نفسية خطيرة جراء ما شاهده المصريون من تقدّم وازدهار لدى الفرنسيين في جميع الميادين؛ تعمّد الفرنسيون إظهاره في أثناء الحملة، وظهرت الليبرالية في كثير من المجالات التي صاحبت الحملة، كالسياسة والتشريع، حتى في الأخلاق عن طريق الفرنسيات المرافقات للحملة، سواء في ملبسهنّ وسلوكهنّ، ولم تكد الحملة الفرنسية تخرج من مصر حتى أثّرت تأثيراً نفسياً سلبياً في نفوس الكثير من المصريين، أعقبه ميل للخضوع والخنوع والتقليد.

ولم تمض إلا سنوات قليلة حتى ظهرت الطلائع الليبرالية في أمة الإسلام، أمثال رفاة الطهطاوي وخير الدين التونسي وغيرهم..

ثم جاءت مرحلة الاستعمار الإنجليزي التي ظلّ فيها المدّ الليبرالي يزداد عمقاً، وتحت إشراف ذلك المستعمر وضع الليبراليون أيديهم على كلّ منافذ التأثير، وقد تعاقبت على حكم مصر حكومات تنتمي إلى

أحزاب سياسية، وكان أكثرها يحمل المبادئ الليبرالية في السياسة والاقتصاد والثقافة والاجتماع، كحزب الوفد الضليع في علمانيته، والذي أسسه سعد زغلول، والذي تفرعت منه أو انشقت عنه أحزاب علمانية، تؤمن كلها بالمبادئ الليبرالية على اختلافٍ بينها في الوسائل، وفي المدة من (أكتوبر ١٩٢٢م) وحتى قيام ثورة (يوليو ١٩٥٢م)، أي فيما يقرب من ثلاثين عاماً، قامت في مصر إحدى وأربعون وزارة، كان (الوفديون الليبراليون) أو المنشقون عن الوفديين (السعديون) يتناوبون فيها مع غيرهم من العلمانيين على كراسي رئاسة الوزراء، ولم يكن التنافس بين هذه الأحزاب في الغالب إلا بقدر إثبات قدرتها على إحداث التغيير في بيئة المجتمع المصري وفق معايير الغرب.

فماذا كانت الحصيلة؟

- وضع دستور علماني لمصر عام ١٩٢٣م على يد (حزب الأحرار) الدستوريين المتعاطفين مع الإنجليز، وهو الدستور الذي ظلّ معمولاً به مدة المدد الليبرالي، والذي نصّ صراحة على أنّ التشريع حقّ خالص للبرلمان، وهو ما يعني تنحية الشريعة، وظلّ ذلك تقليداً متبعاً بعد ذلك.

- في ظل الأحزاب الليبرالية جرى (تأليف) أحكام وقوانين وضعية بدلاً من الأحكام الشرعية على يد (عبد الرزاق السنهوري) وفريقه،

وهي الأحكام والقوانين المحادّة للشريعة والمتناقضة مع أحكامها ومقاصدها، وأصبحت تلك القوانين الوضعية مصدراً تستمد منه معظم الدول العربية فيما بعد قوانينها، وقد أحلت تلك القوانين كثيراً من المحرمات، وألغت مرجعية الشريعة بشكل عملي.

- انطلقت مؤامرة (لبرلة) أو (تحرير المرأة) من حجاب العقّة والكرامة على يد قاسم أمين (تنظيراً)، وهدى شعراوي وصفية زغلول (تطبيقاً)، وانتشرت العدوى بعد ذلك إلى بلدان عربية عديدة، حتى صارت بعض العربيات ينافسن الأوروبيات في (الليبرالية) الاجتماعية والأخلاقية!

- أرسيت قواعد التعامل الربوي، لثبني عليها صروح الاقتصاد، على يد طلعت حرب الذي أقام اقتصاداً وطنياً حراً، وأنشأ بنك مصر، وأقام المؤسسات والشركات ليؤكل الربا أضعافاً مضاعفة.

- أُصِلَ بطلان الحكم الإسلامي على يد (علي عبد الرازق) الذي بلغت (الليبرالية الدينية) على يديه أن زعم أنّ المسلمين أحرار في أن يهجرُوا تحكيم الشريعة؛ لأنّ الإسلام دين لا دولة!

- جرت لبرلة أو علمنة مناهج التعليم على يد المفوّض الإنجليزي المستشار القسّ (دنلوب) الذي كلّف بوضع المعالم الرئيسة لمناهج التعليم المصرية؛ بحيث يُحَيّد فيها الدين الإسلامي، والتاريخ الإسلامي،

ويهتمش اللغة، ويستلهم المبادئ الغربية.

- أما الصحافة والإعلام؛ فلا تسلم عن تعاون الفجّار مع الكفار في إنشاء مؤسساتها وإرساء قواعدها على أسس منافية للدين عقيدةً وشريعةً وأخلاقاً؛ حيث اشتهرت أسماء لأخبث قوى الهدم باسم الكتابة والفن والأدب، ولملت أسماء كثير من النصارى واليهود، الذين قاموا في ظلّ حماية الحكومات الليبرالية بهدم كلّ ما طالته أيديهم من قيم وأخلاق ومبادئ، بالتعاون مع حثالة من دروز لبنان، ونصيرية سوريا، وأقباط مصر، مع من داروا في فلّكهم من سقطّة القوم^(١).

٢ - تطرف الليبراليين العرب (الليبراليون الجدد):

ثمّ تمضي القافلة، حتى نصل إلى ظهور فئة من الليبراليين أطلق عليهم (الليبراليون الجدد) الذين يتّسمون بالتطرف في أفكارهم، ومواقفهم السلبية من الإسلام، وولائهم للسياسة الأمريكية والإسرائيلية. ومن أبرز سماتهم أيضاً تناقضهم المخيف مع أبسط مفهومات الليبرالية، وهي الحرية والتعددية والاحتفال بالتنوع، كما أنّ الظاهرة (الليبرالية) الجديدة ذات طبيعة إقصائية وأحادية وموغلة في جلد الذات

١ - د. عبد العزيز كامل: دعاة اللبلة! عقول محتلة، أم ولاءات مختلفة؟، مجلة البيان، ع ٢١٩.

والتبرؤ من تاريخ الأمة وأمجادها، والتشديد على أنّ (الحداثة) مرتبطة ارتباطاً جوهرياً بالتنكر للدين، واستلهام التجربة الأوروبية في هذا السياق، ومن ثمّ إعادة تأويل القرآن والسنة ليتماشيا مع مقتضيات الحداثة المنشودة، بحيث يتمّ تبني المفهوم الغربي والطريقة الغربية والسياسات الغربية، والدفاع عنها وتسويقها بشتى السبل، ويمثّل هذا الاتجاه في السعودية - مثلاً - عبد الرحمن الراشد وعدد من زملائه في صحيفة الشرق الأوسط، وقناة العربية وموقعها الإلكتروني على الإنترنت، وكذلك موقع إيلاف على شبكة الإنترنت الأوضح تطرفاً، والذي يرأسه عثمان العمير، وكان رئيس تحرير سابقاً للشرق الأوسط^(١). ومن الأمثلة على تطرّف هذه الفئة أنّ الناشط الليبرالي السعودي (رائف بدوي) يرى أنّ الرئاسة العامة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي المنكر (بالسعودية) أقيمت من أجل أمر واحد هو «قمع الشعب السعودي»، ويرى ضرورة تقديم رئيسها إلى محكمة العدل الدولية بوصفه مسؤولاً عن جرائم ضد الإنسانية، وشنّ (بدوي) خلال البرنامج الذي خصصته قناة (سي إن إن) الأمريكية للحديث عن الهيئة، هجوماً قوياً على أفرادها،

١ - د. أحمد بن راشد: عبد الرحمن الراشد والخطاب المتصهين، مجلة المنار الجديد - العدد ٣٩ / يوليو ٢٠٠٧م.

وقال: إنّ «أغلبهم من أصحاب السوابق الأخلاقية»^(١)!

ومن الأمثلة الفجّة أيضاً على تطرف الليبراليين العرب المدعو محمد أركون، وهو مُفكّر جزائري، جُلُّ مؤلفاته باللّغة الفرنسيّة، تُرجم بعض منها مؤخّراً إلى العربيّة، وكذلك بعض نصوص مُحاضراته التي نشرتها بعض المجالات العربيّة.

من يستقرئ أعمال (أركون) يجد عنده أهدافاً واضحة، ويجد لديه صبراً على التزوير والمراوغة واللعب بالكلمات في غير معانيها، حتى يحصل على هدفه الكبير من كلّ مشروع، ومن أبرز وسائله نقد الكتّاب الإسلاميين الذين ليست لهم صلة بالمدارس الغربية في الفكر، ويرى اعتبار المعرفة الإسلامية نموذجاً أسطورياً لا بد أن يخضع للدراسة والنقاش، ويرى المجاهرة باعتبار العلوم الإسلامية سياقاً معرفياً أسطورياً يزعم المسلمون ويهز إيمانهم، ولكن لا بد - كما يرى - من بناء مفاهيم جديدة مستمدة من الاحتياجات الجديدة كما فعل السلف، ويرى أنّ هناك مناطق عديدة في الفكر الإسلامي لا تمسّ ولا يفكر فيها، مثل مسألة عثمان رضي الله عنه، وقضايا جمع القرآن الكريم، والتسليم بصحة أحاديث البخاري، والموافقة على الأصول التي بناها الشافعي، ويرى أنه يضع أساساً للاجتهاد وعقلانية جديدة.

١ - نقلاً عن جريدة الرياض، لقاء أجرته معه شبكة (سي إن إن) الأمريكية.

ويرى أنّ القرآن عمل أدبي لم يُدرس كما يجب إلا من قِبَل ندرة، أهمّهم عنده (محمد أحمد خلف الله) عندما كتب عن القصص الفنيّ في القرآن وقال إنّ القصة القرآنية مفتعلة! كما يرى أنّ القرآن والكتب السابقة تعاني سيقاقاً واحداً، ويضع القرآن مع الأناجيل في مستوى من الثبوت والدراسة واحد، ويرى أنّ الحديث الشريف هو جزء من التراث الذي يجب أن يخضع للدراسة النقدية الصارمة لكلّ الوثائق والمواد الموروثة - كما يسمّيها -^(١).

والأمثلة على جهالات الليبراليين وضلالاتهم كثيرة، فمن بلاد الشام نجد مثلاً آخر لا يقلّ سفاهةً وانحطاطاً عن سابقه، وهو (إلهام منصور)، وهي امرأة لبنانية، استهوتها حركة تحرير المرأة، فخطت فيها خطوات كثيرة، ولكن لم يُرضها كلّ هذا التحرير المزعوم الذي حدث في لبنان (كشف وجهه، بل غيره، واختلاط، وسياسة، وغناء، وتمثيل، ورقص.. إلخ)، لهذا فقد ألّفت - قبل سنوات - كتاباً بعنوان (تحرير المرأة في لبنان)، لكن من يقرأ الكتاب سيعرف الخطوة الأخيرة المهلكة التي سيوصلها التدرج في التحرير الذي تزعمه لا محالة، ولو من البعض الجريء.

١ - د. محمد حامد الأحمرى: محمد أركون ومعالم أفكاره.

قالت إلهام منصور في كتابها: «الدين هو أول عائق خارجي في سبيل تحرير المرأة»، ثم تتجراً أكثر وتخطو خطوة شيطانية لتقول: «المشكلة الأساسية بالنسبة للدين الإسلامي هي مشكلة النصوص، أي في كونها مُنَزَّلة، فهذا مما يجعل تحرير المرأة المسلمة أصعب بكثير من تحرير المرأة المسيحية، وثورة المرأة المسلمة يجب أن تكون أعنف وأقوى من ثورة المرأة المسيحية؛ لأنها ستقوم ضد النصوص!»! ثم تجهر بخطوتها الأخيرة قائلة: «لا تُمارَس المرأة اللبنانية حقوقها هذه؛ لأنها محرومة من الحق الأساسي، أي حق التحرر الجنسي، والعائقي، الذي ما زال وقفاً على الرجل، وحقاً له وحده.. والمجتمع اللبناني الذي يحجب عن المرأة أي حق بإقامة علاقة جنسية خارج الزواج يُرغمها إمّا على الانحراف لإشباع حاجاتها بطرق وأساليب غير طبيعية، وإمّا أن تلجأ إلى الكبت، أو تلجأ لأساليب الجنس الشاذة كالسحاق»^(١)!!

ولعل ما نشاهده هذه الأيام من ليبراليي دول الربيع العربي ونباحهم ليل نهار ضد الإسلام والشريعة الإسلامية، ودعوتهم للدولة المدنية (اللا دينية) أمر زائد عن حده، وزاد حقنهم بعد وصول الإسلاميين إلى الحكم في بعض الدول، فكأنما ارتكبت الشعوب خطيئة لا يحوها إلا

١ - سليمان الخراشي، دكتورة لبنانية متحررة تكشف آخر أوراق دعاة التغريب!

حملات الكذب والتشويه غير المسبوقة لكل ما هو إسلامي.
مع زعمهم أنهم دعاة الديمقراطية والتعددية إلا أنهم لا يملون من
الحديث على عدم أحقية الإسلاميين في الحكم، فهم إقصائيون إلى أبعد
مدى.

مما ينفي مصداقيتهم والتزامهم بمبادئ الليبرالية الغربية، ويجعل
الليبرالية العربية حالة فريدة من نوعها قوامها رفض هوية الأمة ودينها
وشريعتها.

ويزيد من الأمر غرابة أن موقف الليبرالية العربية المتعنت هو من
الدين الإسلامي فقط، فمن المشاهد احترامهم الشديد للكنيسة
وكهنتها، وزيارتهم المستمرة لها، ولعلنا نلاحظ طائفة من هؤلاء يدافعون
باستماتة عن الكنيسة وتصرفاتها، مثل فاطمة ناعوت وخالد منتصر
ونجاد البرعي ونبيل شرف الدين، وغيرهم حتى شك البعض في كونهم
متنصرين.

٣ - المرجعية الفكرية لدى الليبراليين العرب^(١):

- تقديس العقل والتشكيك في الغيب.
- تثبيت فكرة المرجعية الإنسانية ومركزية العقل الإنساني.
- تثبيت أنّ الطبيعة كلّ مادي ثابت له غرض وهدف، وهي مستودع القوانين المعرفية والأخلاقية والجمالية، ومنها يستمد الإنسان معياره.
- نظرية المعرفة تقوم على العقل والحسّ فقط.
- الإله: معزول وبعيد (مقدّس بشكل إقصائي)، وسواء كان موجوداً أو غير موجود، فهذا أمر هامشي لا علاقة له بمناشط الإنسان العملية والاجتماعية.

٤ - اتجاهات الليبرالية ومجالاتها^(٢):

قال الدكتور سعيد بن ناصر الغامدي - عضو هيئة التدريس

١- في إجابة عن سؤال عن الليبرالية؛ للدكتور سعيد بن ناصر الغامدي - عضو هيئة التدريس بجامعة الملك عبد العزيز، بتصرف، انظر:

<http://www.olamaashareah.net/nawah.php?tid=1233&action=print>

٢- في إجابة عن سؤال عن الليبرالية؛ للدكتور سعيد بن ناصر الغامدي - المصدر السابق.

بجامعة الملك عبد العزيز - : اتجاهات الليبرالية عديدة ومتنوعة، تجتمع تحت عنوان (التحرر من الضوابط والمعايير عموماً، والدينية على وجه الخصوص).

اتجاهات الليبرالية:

١ - فكري: وهو قناعات فكرية بالمناهج والمذاهب التغريبية وبالمسالك العملية، مثل: البنيوية، التمركز حول الأنتى، الحداثة، العلمانية (وهي أعم وأشمل، وتشكّل المعتقد الأصولي لليبرالية)، العصرية.

٢ - عضوي: وهو الانتماء إلى حركة معينة، مثل: الماسونية، حركة الاستنارة، الفرانكفونية، الأندية المشبوهة (روتاري، ليونز)، أو إلى مذهب له أعضاء، مثل: الماركسية، الوجودية، أو إلى دولة غريبة سرّاً أو علانية، والارتباط بها يكون: سرّاً مثل: المخابرات (قد يظهر الارتباط بواجهة تعاون ثقافي مع السفارات أو البعثات)، أو علناً مثل: الشخصيات التي تعلن عن ذلك مثل: علي آل حمد، شاعر النابلسي، مأمون فندي، عبد الرحمن الراشد، أحمد الربيعي.

٣ - سلوكي: وفق القناعات الفكرية، ووفق الانتماء العضوي، وتقليد ومحاكاة.

مجالات الليبرالية:

- **الفكر:** وهي منظومة من الأفكار أو المناهج أو المذاهب تشكّل قناعات فعلية، توجه أصحابها وتسيطر على نظراتهم ومعاييرهم.
- **المشاعر:** وهي مجموعة من المقاصد والمشاعر والولاءات والعداءات، تظهر من خلال الميول والحبّ والرغبة والاعتزاز والانتماء.
- **الأعمال والممارسات:** مسيرة مسلكية علمية، يسير صاحبها وفق القناعات الفكرية والميولات القلبية، أو بسبب التقليد والمحاكاة.

٥- أهداف الليبراليين العرب^(١):

المعالم الرئيسة لما يريد أصحاب الليبرالية تثبيته:

- الغرب مصدر وأصل.
- تسويق المبادئ والأفكار الغربية.
- تحسين كلّ ما يأتي من عنده.
- الدفاع عن مواقفه في القضايا المختلفة، وتسويق المنطلقات والمقاصد.
- تشجيع الدول والأفراد للحاق بالغرب.

١ - في إجابة عن سؤال عن الليبرالية؛ للدكتور سعيد بن ناصر الغامدي، المصدر السابق.

- الإشاعة والضرب على وتر أنّ الحضارة الغربية الليبرالية سائرة نحو تعميم نفسها على مختلف مناطق العالم.
- المعالم الرئيسة لما يريد أصحاب الليبرالية نفيه وإزالته:
- الالتفات لعيوب الغرب وممارساته الاستبدادية الظالمة.
- الدور الحضاري للأمة.
- مكانة اللغة العربية.
- (الحكم الإسلامي)، حيث تقاومه السياسة الليبرالية عندهم بمحاربتة باسم (محاربة الإسلام السياسي).
- معالم الدين، المقدّسات.
- حقائق التاريخ الإسلامي.
- نظرتهم للمرأة في المجتمع المسلم:
- الاعتداء على حصانة المرأة وعفتها وكرامتها باسم الحرية والتحرر (في الحقيقة: الانحلال والإباحية).
- مساواة المرأة مع الرجل مساواة تامة في الحقوق والواجبات والإرث والشهادة، مثل مجلة الأحوال الشخصية التونسية ١٩٥٧م، وهي نموذج أمثل لتحرير المرأة^(١).

١ - شاكر النابلسي، الليبراليون الجدد: جدل فكري، منشورات الجمل، كولونيا ألمانيا، ٢٠٠٥، ص ٢٥.

نظرتهم للدين الإسلامي وعلمائه ودعاته:

- التدين تحجّر وقسوة وظلام وتكفير.
- الدين علاقة بين الفرد وربّه لا غير.
- الوحي مصدر للمعرفة.
- النيل المتواصل من علماء الإسلام، والزعم أنّ علماء الإسلام والوعاظ - كما يسمّونهم - منغلّقون عن العلم الحديث.
- الحملة العدائية المنظمة والمتواصلة على التيار الإسلامي ومشجّعيه، واتّهامه بأنّه تيار غوغائي ديماغوجي.
- اتّهام التيار الإسلامي، والزعم، بأنّه ضد القيم الإنسانية، وضد التعددية الفكرية والعقائدية، وضد حرية الضمير، وضد التفاعل الحضاري والإنساني.
- اتّهام التعليم الديني بأنّه تعليم ظلامي.
- الحملة على الأحكام الشرعية، وزعمهم المتواصل أنّها محصورة بزماها.
- الحرب على الفكر الديني الذي جاء به علماء الدين وفقهاؤه ورجاله، والزعم أنّه حجر عثرة في طريق التقدم.
- الهجوم على العلماء المتبوعين ورميهم بأنّهم أعداء العقل، كابن تيمية والسيوطي وابن القيم، ويسخرون من أتباعهم بزعم أنّهم استبدلوا

العلوم المعاصرة بالطب النبوي، حتى أصبح النبي (صلى الله عليه وسلم) أحذق من أبي الطب أبوقراط - هكذا التهمة -.

مفاهيم يتبنونها باستمرار:

- حتمية الليبرالية والديمقراطية؛ لأنها حركة تاريخية شاملة جارفة كاسحة.

- الترويج المستمر أنّ الليبرالية الجديدة مع القيم الإنسانية الكونية، ومع التعددية الفكرية والعقائدية، ومع حرية الضمير، ومع التفاعل الحضاري والإنساني.

- التصريح والتأكيد أنّ مبادئ الليبرالية الجديدة: حرية الفكر المطلقة - حرية التدين المطلقة - التعددية السياسية - المطالبة بإصلاح الدين - فصل الدين عن الدولة - إخضاع المقدّس والتراث للنقد العلمي - تطبيق الاستحقاقات الديمقراطية.

ومن المفاهيم التي يروجون لها:

- محاربة نظرية المؤامرة.
- لا يمكن إنتاج الحاضر بتاريخ الماضي.
- الاتجاه للماضي للاستعانة به لبناء الحاضر هو أسوأ الخيارات.
- على العرب التخلّي عن المثل الأعلى الموهوم.
- تحرير النفس العربية من ماضيها، ومن حكم الأسلاف الذين ما

زالوا يحكموننا من قبورهم.

- المرجعية: لا وجود لعلم مطلق.. ولا مرجعية للمقدّس إلا ما يتوافق مع العقل.

ومن مطالب الليبراليين الجدد:

- المطالبة بإصلاح التعليم العربي الظلامي (الديني).
- إخضاع المقدّسات والقيم الأخلاقية والتشريعات للنقد العلمي باستخدام (الجينالوجيا) القائمة على (من؟ ولماذا؟).
- يجب عدم الاستعانة مطلقاً بالمواقف الدينية التي جاءت في الكتاب المقدّس (القرآن) تجاه الآخرين قبل ١٥ قرناً.
- الأحكام الشرعية وضعت لزمانها ومكانها، وليست عابرة للتاريخ.

- تبني الحداثة الغربية تبنيّاً كاملاً، باعتبارها تقود للحرية.
- الوقوف إلى جانب العولمة وتأييدها باعتبارها أحد الطرق الموصلة إلى الحداثة الاقتصادية والسياسية والثقافية.

٦ - خطتهم لتحقيق أهدافهم ومبادئهم وأفكارهم^(١):

أسس عملهم في المجتمع:

- بث المذاهب الفكرية.
- تركيزهم الدائم أنه لا يوجد شيء اسمه «غزو فكري».
- كسر جوزة المسكوت عنه وتحليل ما بداخلها.

أسس عملهم في مجال السياسة:

- المصلحة هي الأساس (البراجماتية).
- (الدولة المدنية) هي البعيدة عن أي تأثير ديني.
- عدم الحرج من الاستعانة بالقوى الخارجية لدحر الدكتاتورية العاتية، واستئصال جرثومة الاستبداد، وتطبيق الديمقراطية الغربية، في ظلّ عجز النّخب الداخلية والأحزاب الهشّة.. وهذه ليست سوابق تاريخية، فقد استعانت أوروبا بأمريكا لدحر النازية والفاشية، وقامت أمريكا بتحرير أوروبا، كما قامت بتحرير الكويت والعراق.
- لا حرج في أن يأتي الإصلاح من الخارج.. سواء أتى على ظهر جمل عربي أو على دبابة بريطانية أو بارجة أمريكية أو غواصة فرنسية.
- لا حلّ للصراع العربي مع الآخرين في فلسطين وغيرها إلا بالحوار والمفاوضات والحلّ السلمي.

١- في إجابة عن سؤال عن الليبرالية؛ المصدر السابق.

- الإيمان بالتطبيع السياسي والثقافي مع الأعداء.
- الاعتراف بالواقعية السياسية، مثل:
 - أ - اتفاقية كامب ديفيد ١٩٧٩م.
 - ب - اتفاقية أوسلو ١٩٩٢م.
 - ج - اتفاقية وادي عربة ١٩٩٤م.
- يجب أن تصبح اتفاقيات شعبية.

المبحث الخامس

دور الليبرالية في محاربة الإسلام

لم يكن للمحتل الصليبي أن يحمل عصاه ويرحل عن بلاد المسلمين إلا بعدما خلف وراءه عملاء ووكلاء صنعهم على عينيه للقيام بدوره على أكمل وجه؛ في السياسة والاقتصاد والأمن والجيش والقضاء والإعلام والفن والصحافة والأدب والثقافة، وفي كل المجالات، وقد أصبحوا هم القادة والأبطال والزعماء والمتنفذين والنجوم والقذوات. فاستطاع هؤلاء الليبراليون — بعد أن صُنِعُوا على أعين المحتل — أن يمكنوا لسياساته وهيمنته وثقافته وأخلاقه وقوانينه في بلاد المسلمين، وهم من يَدْعِمُ إبقاء تبعية الأمة لأعدائها والوقوف أمام أي محاولة للتحرر من هذه التبعية والذل والهوان.

كما عملت هذه النبتة الشيطانية على إذلال شعوبها، وسرقة ثروات وثورات وإنجازات أبطالها الحقيقيين، بالإضافة إلى إصرارهم على تغييب وعى الأمة ونشر قيم ومبادئ الغرب بين أفرادها، ومحاربة قيم وأخلاق المسلمين المستمدة من ديننا الحنيف.

فهؤلاء المرتزقة جمعتهم الأهواء والشهوات والعمالة لهدم كيان الأمة وتخطيم مقدراتها ومحاربة المخلصين من أبنائها، ووقفوا سدًا منيعًا في وجه

أي نهضة حقيقية للأمة، وحالوا بينها وبين دينها وعقيدتها التي هي مصدر عزتها ومنبع قوتها.

فأصبحوا يمثلون الطابور الخامس الذي يقف في خندق واحد مع أعداء الأمة يسحبونها إلى مستنقع الذل والتبعية تحت دعاوى العولمة والشرعية الدولية ومحاربة الإرهاب وغيرها ...

والليبراليون ليسوا نبتاً منقطع بل لهم امتداد عبر التاريخ والجغرافيا، فما وجد الحق يوماً إلا كانوا له بالمرصاد، فهم امتداد لابن سلول وابن سبأ وأتباعهم...

وفي عصرنا الحاضر وجدنا فئام منهم من بنى جلدتنا يعيشون بيننا ويتكلمون بالسنن، لا همّ لهم إلا أن نترك عقيدتنا، ونتفرج في جميع نواحي حياتنا، حتى الدينية منها، ألم يتبنوا العلمانية - اللا دينية- ويفسرون الدين وفقاً لها؛ أنه علاقة بين العبد وربّه، ويروجون لهذا الإسلام على الطريقة الغربية في وسائل إعلامهم.

وهؤلاء هم أشدّ خطراً على الإسلام والمسلمين من أي عهد مضى، فقد أظهروا نفاقهم وضلالهم دون حرج أو حياء، وكأني بهم كما قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: (إن المنافقين اليوم شرّ منهم على عهد النبي ﷺ، كانوا يومئذٍ يُسرون واليوم يجهرون) رواه البخاري.

بيد أن ظاهرة الطابور الخامس هذه ليست حكراً على السياسة

فقط، فهي مستنسخة في كل المجالات، فهي موجودة في الأدب والفن والصحافة والإعلام والرياضة والأمن والاقتصاد والقضاء وغيرها من المجالات، فهم أشد على الأمة من اليهود والنصارى. وقد حذرنا منهم ومن مكرهم في القرآن، بل لقد أورد الله صفاتهم بالتفصيل والتوضيح والبيان في أكثر من سورة من القرآن؛ حتى نكون على بينة من أمرهم، وتظهر لنا حقيقتهم؛ لعنا نتقي شرهم ونحذر من خداعهم وخياناتهم..

وحتى نقف على هذه الظاهرة وأبعادها وتأثيرها على الأمة؛ هذه جملة من صفاتهم وأخلاقهم التي توضح بجلاء دورهم في محاربة الأمة، وتفتيت وحدتها، وطمس هويتها، ذكرها لنا الله تعالى في كتابه الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرناً؛ لأن منهج القرآن هو الأضبط والأحكم جمع لنا كل صفاتهم لتتعرّف عليهم:

(١) بغضهم لدين الله ومحاربتهم لشريعته، ورفضهم تحكيم شرع الله:

فهم يرفضون ويحاربون التحاكم إلى شرع الله ويبدلونه ويشوهونه، يقول تعالى: ((أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا

بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتِ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا)) النساء ٦٠-٦١.

فهذا من خبثهم وضلالهم وبغضهم للحق، وكل ما يمت له بصله، فتجدهم يرددون دائماً أنهم يريدون دولة مدنية (لا دينية)، ولا يريدون دولة دينية، وهم يريدون بذلك التلبيس والتدليس، حتى يوهما الناس أنهم يريدون دولة عصرية بعيدة عن تسلط رجال الدين، وفي الحقيقة أنهم يرفضون تحكيم الإسلام وشريعته.

والإسلام لم يعرف طيلة تاريخه ما يسمى بالدولة الدينية، فهي محض افتراء، لم تظهر إلا في الغرب في القرون الوسطى، عندما تسلط رجال الدين على الدولة ينصبُّون الملوك، ويستغلون البلاد والعباد لخدمة أطماعهم.

الدولة في الإسلام نموذج فريد قل مثيله في أرقى الديمقراطيات الغربية، فهي تقوم ابتداءً على احترام شرائع الخالق، ثم تحقيق العدل والإحسان والحقوق للناس أجمعين..

فالدولة في الإسلام قامت على أساس حماية الحق والعدل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإصلاح في الأرض وإعمارها، وتطوير الحياة وتنميتها؛ لتوفير خير البشرية وسعادتها، والدعوة إلى توحيد الله

وعبادته، وهداية الإنسان إلى طريق الهدى، وكل هذه الموجبات هي موجبات أخلاقية وعقيدية، والعشرات من الآيات والروايات وسيرة الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، العملية كلها تؤكد هذا التفسير لقيام الدولة، نذكر منها قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ). (النساء ٥٨).

(وبالحق أنزلناه وبحق نزل ...). (الإسراء ١٠٥)

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ). (الحج ٤١).

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ...). (النور ٥٥).

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا...). (القصص ٨٣).

(وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا). (النساء / ٧٥).

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ). (الذاريات ٥٦).

(... يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا...). (هود ٦١).

هكذا تتحدّد حقيقة الدولة وأسس قيامها في المفهوم الإسلامي..
فإقامة الدولة التي تحكم بشرع الله هي أوجب الواجبات، بل أهم مقتضيات العقيدة الصحيحة، ولا يتم إيمان المسلم إلا إذا آمن بالله ورضي بحكمه في القليل والكثير، وتحاكم إلى شريعته وحدها في كل شأن من شؤون حياته؛ في الأنفس والأموال والأعراض، وإلا كان عابداً لغير الله تعالى، قال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ النساء ٦٥، وقال رسول الله ﷺ: ((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)) قال النووي: حديث حسن صحيح.

فمن خضع لله تعالى وأطاعه وتحاكم إلى شرعه فهو العابد له، ومن خضع لغير الله وتحاكم إلى غير شرعه فقد عبد الطاغوت وإنقاد له، والعبودية لله وحده والبراءة من عبادة الطاغوت والتحاكم إليه من مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

١ - وجوب تحكيم الكتاب والسنة والتحاكم إليهما ونبذ ما خالفهما، سعد بن عبد الله العجمة الغامدي،

(٢) موالا تهم لأعداء الله، وحبهم لهم، ونصرتهم، ومظاهرتهم على

المؤمنين:

وتشبههم بهم طمعاً في العزة عندهم، يقول تعالى: ((بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا، الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِيتُّعُونَ عَنْهُمْ الْعِرَّةَ فَإِنَّ الْعِرَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا)). (النساء ١٣٨-١٣٩).

ويقول تعالى: ((أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)). (الحشر ١١).

وهذه من أظهر صفاتهم، تراهم في كل موطن فيه مدافعة بين الحق والباطل دائماً في صف الباطل، وينصرون أهله، فتراهم مع نظام الأسد في سورية ينصرونه ويظاهرونه، رغم ما يفعله بأهل سورية من تقتيل وتهجير واعتقال وتفجير، بل رغم كفره وضلاله، فهم في معتقداتهم وسلوكهم وأخلاقهم وسمتهم يتشبهون بأهل الباطل ويفخرون بذلك، وفي نفس الوقت ييخشون كل إمكاناتهم لنصرة أعداء الله بالقول والفعل والسلوك، فهم وإن عاشوا بين ظهراي المسلمين قلوبهم مع أعداء الدين، وإن كانوا بالأسنتهم وأجسامهم وعدادهم في المسلمين لأنهم يخشون الدوائر فيسارعون للولاء والمودة للكافرين، فيرتمون في أحضانهم حمايتهم والاستقواء بهم.

والمقصود بمظاهرة المشركين على المسلمين أن يكونوا أنصاراً وظهوراً وأعواناً للكفار ضد المسلمين، فينضمون إليهم، ويدبّون عنهم بالمال والسنان والبيان، ومظاهرة الكفار خصلة من خصال المنافقين، وشعبة من شعب النفاق، كما جاء بيان ذلك في كثير من آيات القرآن.

قال تعالى: (بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا الَّذِينَ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلِيتَهُمْ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا). (النساء: ١٣٨-١٣٩).

وقال سبحانه: (فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ). (المائدة: ٥٢). يقول ابن جرير: هذا خبر عن ناس من المنافقين كانوا يوالون اليهود والنصارى، ويغشّون المؤمنين، ويقولون: نحشى أن تدور دوائر إما لليهود والنصارى، وإما لأهل الشرك من عبدة الأوثان، أو غيرهم على أهل الإسلام، أو تنزل بهؤلاء المنافقين فيكون بنا إليهم حاجة، وقد يجوز أن يكون ذلك كان من قول عبد الله بن أبيّ، ويجوز أن يكون كان من قول غيره، غير أنه لا شك أنه من قول الليبراليين^(١).^(٢)

١- تفسير الطبري ٦ / ١٦١.

٢- موقع الدرر السنية، الموسوعة العقدية،

(٣) استهزاءهم بالله ورسوله ودينه ورموز الإسلام والمسلمين:

يقول تعالى: " إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ { ٤٩ } ". (الأنفال).

ويقول تعالى: " يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزَؤُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ { ٦٤ } وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ { ٦٥ } لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ { ٦٦ } " (التوبة).

فمن صفاتهم اللصيقة بهم بغضهم للحق وأهله، واستهزاءهم بالإسلام وتعاليمه ونبيه ﷺ وأتباعه، فلا يتركون مناسبة إلا ويظهرون مسلكهم هذا وإن عجزوا تفضحهم تعبيرات وجوههم الكالحة، ومن ذلك سخريتهم من العلماء والدعاة، ورجال الحسبة، وحفظة كتاب الله، وكل متمسك بالحق والشرع، وما ذاك إلا لأنَّ السخرية بالصلاح وأهله، والترويج للفساد وأهله سمة من سمات الليبراليين في كل زمان، لا تنفك عنهم أبداً.

ولقد تعودنا منهم في كل رمضان على صنع مسلسلات ومشاهد يسخرون فيها بدين الله تعالى، وشعائره الظاهرة، وأحكامه المنزلة، ويصوّرون للمشاهدين حملة الدين ومبليغيه، والمتمسكين به، والدّاعين إليه، والمدافعين عنه - في أبشع الصُّور وأحطّها، وهذا من الغيظ الذي امتلأت

به قلوبهم على الإسلام وأهله، ويأتي ذلك في سياق الحملة العالمية التي تآزر فيها الكفر مع النفاق لإجهاض الإسلام، والحدّ من انتشاره في الأرض: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٣٢).

وسخرية الليبراليين بالدين وأهله أخبرنا بها ربُّنا جلّ جلاله في مواضع شتى من كتابه الكريم؛ ففي سورة البقرة: ﴿قَالُوا أَنْتُمْ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: ١٣]، فوصفوا الإيمان بالسَّفه! وجعلوا المؤمنين سفهاء!! وليس بعيداً عن هذه المقولة مقولات منافقي عصرنا، وكتاباتهم في صحفهم عن الإسلام وشريعته، ومن يتمسكون بها، ويدعون الناس إليها ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (البقرة ١٤)^(١).

(٤) استغلال الدين لتحقيق مآربهم ومخططاتهم الشيطانية، والتستر

وراء عباءته، والظهور بمظهر الناصح الأمين:

قال تعالى: ((وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِقَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى

١ - سخرية المنافقين بالدين وأهله، د. إبراهيم بن محمد الحقييل، موقع الألوكة،

وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)) التوبة ١٠٧ .

إن الاستغلال المقيت للدين يمارسه من لا يؤمن بالدين، ولا يحرم محرماته، ولا يعظم شعائره ومقدساته، وإنما يتخذ الدين مطية إلى مآربه ومنافعه، ويتذرع به تقيّة ودعاً لما يخشاه من المكروه، فهذا استغلال شائن للدين يأباه العقل والعرف والشرع، وهذا هو استغلال الدين الذي كان دائماً من شأن المنافقين في كل زمان ومكان، كما ذكر عنهم القرآن الكريم إذ قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) يُجَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بما كانوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنْتُمُ الَّذِينَ آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) . (سورة البقرة).

وقال سبحانه: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۗ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) . (سورة المنافقون).

فهذه نماذج من المنافقين الذين يتظاهرون بالدين كذباً وزوراً ويستغلونه

لأغراضهم ومقاصدهم الآئمة، وإنما هم يستغلونه تقيّة ليستتروا على ما يقومون به من فساد في الأرض، وإشاعة للكفر والإباحية في الناس^(١). وهم من رفع شعار لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة، وهو مصطلح علماني يفصل بين الدين وأهم مناحي الحياة وهي السياسة، فما أنزل الله الدين إلا ليسوس به الخلق، لكنهم إذا كانت لهم المصلحة ضربوا بهذا الشعار وبكل مبادئهم العلمانية عرض الحائط، فالدين إذا كان لخدمة مآربهم وأهدافهم ورغباتهم تذكره وأعلنوا التزامهم به.

١ - الاستغلال الشرعي للدين، الشيخ عبدالباري الزمزمي،

<http://www.attajdid.info/def.asp?codelangue=6&infoun=1353>

المبحث السادس

تأفت الليبرالية

بعد سقوط الشيوعية كإيديولوجية كانت تهدد الفكر الليبرالي الغربي، اغتر الغربيون كثيراً بمبدأ الليبرالية، وصاروا ييشّرون به في كلّ محفل، ويزعمون أنه هو خيار الإنسانية الوحيد، فوظّفوا طاقاتهم الفكرية والإعلامية بدعم سياسي واقتصادي رهيب لنقل هذا النور (بزعمهم) إلى الإنسانية كلها.

ولعلّ أبرز نتاج فكري يدل على الغرور الكبير بهذا المبدأ كتاب (نهاية التاريخ) لمؤلفه فرانسيس فوكوياما، وهو أمريكي الجنسية ياباني الأصل، وقد ظهر فيه بوضوح مدى الغرور الكبير بهذا المنهج (الليبرالية)، حيث اعتبرها فوكوياما نهاية التاريخ الإنساني وليس الأمريكي فحسب.

ولقد استغل الغربيون الليبراليون الإمكانيات الكبيرة المتاحة لديهم لنقل هذا المذهب إلى أقصى الدنيا، وصناعة الحياة الإنسانية على أسسه ومبادئه، عن طريق القوة السياسية والاقتصادية، وتوظيف وسائل الاتصالات التي تمكّنهم من مخاطبة كلّ الناس وفي كلّ الأرض.

ولعلّ من أبرز نتائج الليبرالية في مجال الاقتصاد (العولمة) وما تحمله

من مضامين فكرية وقيم أخلاقية وأنماط حضارية، وهي تحمل الرغبة الغربية في السيطرة في كل اتجاه (الحربي والسياسي والقيمي والحضاري والاقتصادي)، فضلاً عما تحمله من الدمار للإنسانية في معاشها الدنيوي، وقد ظهرت آثار الرأسمالية في الحياة الغربية قبل مرحلة العولمة التي هي تعميم للرأسمالية على العالم كله.

مما جعل البعض يعتبر القرن الحادي والعشرين هو قرن المفكر الشيوعي (كارل ماركس) لما يرى من تكدس الثروة بيد طبقة من الناس، وانتشار الفقر والعوز في الناس، وأخذ الأموال من البشر بأي طريق، والتفنن في احتكار السلع الضرورية، وتجويع البشر، وإذلالهم باسم الحرية الاقتصادية^(١).

١- دور الليبرالية في الأزمة الاقتصادية المعاصرة:

النظام الرأسمالي بطريقة تطبيقه، ووفقاً لـ (أولريخ تيلمان) نائب مدير معهد أخلاقيات الأعمال التجارية في جامعة سانت غال السويسرية، أثبت أنه متوحش وغير عادل، وقد أثبتت الشهور الأخيرة أنه يفوق في خزيه كل وصف.

١ - عبد الرحيم بن صمايل السلمي: الليبرالية نشأتها ومجالاتها.

ففي العقود الأخيرة اكتسبت الأسواق المالية نفوذاً عظيماً، أدى إلى سيادة نمط من عدم المساواة، وكانت النتائج خسائر كبيرة، سيفرض على دافعي الضرائب من المواطنين العاديين تسديدها.

إنّ الأزمة الحالية، من وجهة نظر (تيلمان) ترقى إلى مستوى الفضيحة، وإنّ الحلول التي جرى تبنيها من قبل الإدارة الأمريكية والدول الأوروبية - كما يرى عدد من المحللين الاقتصاديين - هي حلول غير واقعية، وهي أشبه باللجوء إلى تدريبات مكافحة الحرائق لمنع أزمة اقتصادية عالمية.

إنّ كون رأس المال ليس مجرد لعبة بين أيادي حملة الأسهم، بل يرتبط بالاقتصاد الحقيقي، أي إلى سوق الائتمان، يجعل بقية الناس رهائن بطريقة ما لحركة أسواق البورصة، وربما تكون الخيارات التي تمّ اللجوء لها مقبولة بشكل مؤقت، لكن ينبغي الحذر من الركون لها باستمرار إلى ما لا نهاية، إنّ ترك الحبل على الغارب، سيؤدي إلى مبادرة جميع العملاء إلى سحب مدخراتهم، ومن شأن ذلك أن يعيد كارثة عام ١٩٢٩م، لذلك يغدو بديهياً أن تتدخل الدولة وتعلن ضمانها لتلك الأموال^(١).

١ - د. يوسف مكّي، نحو إعادة الاعتبار للاقتصاد الموجه، صحيفة الخليج الإماراتية، ٦ نوفمبر ٢٠٠٨.

كما يرى كثيرون أنّ الأزمة الراهنة تفتح باب الجدل من جديد حول تناقضات النظام الرأسمالي، ومدى قدرة الليبرالية الجديدة على حلّ أو تجاوز تناقضات هذا النظام في زمن العولمة.

ومن المعروف أنّ الثورة الصناعية التي ظهرت في أوروبا منذ ما يقرب من ثلاثة قرون، ومنها انتقلت إلى بقية أنحاء العالم، أحدثت انقلاباً جذرياً في أنماط الإنتاج ووسائله، وفرضت تقسيماً جديداً للعمل، ترتّب عليه تغيّر ضخم في علاقات الإنتاج، وظهور طبقات اجتماعية مختلفة عن تلك التي عرفتها المجتمعات الزراعية والإقطاعية، وتبلور نظام اقتصادي واجتماعي جديد (الرأسمالي).

هذا النظام مرّ بمراحل تطور متعددة قبل أن يستقر كنظام عالمي تحت تأثير عاملين:

الأول: استعمار أوروبي لقارات إفريقيا وآسيا والأمريكتين؛ حوّلها إلى مصادر لمدّ الصناعات الأوروبية الوليدة بالمواد الأولية التي تحتاج إليها، وإلى أسواق لتصريف منتجاتها.

والثاني: شركات عملاقة ظهرت أولاً في كنف الاستعمار وتحت حمايته، لكنها راحت بعد انتهاء الحقبة الاستعمارية تقوى وتتحول إلى شركات عملاقة متعددة الجنسيات، لتصبح أحد أهم مرتكزات عولمة

النظام الرأسمالي وآلياته.

هذا بالإضافة إلى أنّ اعتناق النموذج الليبرالي الجديد أدى إلى أزمات اجتماعية طاحنة في البداية، من الإضرابات العمالية واسعة النطاق، إلى الارتفاع الحادّ في معدلات البطالة، واقتلاع مجتمعات بأكملها.

أما ما يحدث اليوم؛ فهو يمّسّ دول المركز، بل السوق الأمريكية نفسها، البنوك وشركات الإقراض والتأمين المالي التي أفلست أو أشرفت على حافة الإفلاس هي بعض أضخم المؤسسات المالية في العالم، ومصيرها لا يؤثر في عدد من المستثمرين الكبار أو الصغار وحسب، بل في دول وصناديق سيادية وبنوك وشركات تجارية.

الذين قالوا إنّ الأزمة الحالية لن تصل إلى مستوى الانهيار الذي عاشت فيه الولايات المتحدة ودول أخرى عدّة في نهاية العشرينيات من القرن الماضي محقّون، فالعالم اليوم في وضع أفضل كثيراً من حيث مقدراته على التعامل مع الأزمات المالية والاقتصادية الكبرى، وقد رأينا كيف تحرّكت الدول والبنوك المركزية في جميع الدول الصناعية الرئيسة لمحاصرة الأزمة ومنعها من التفاقم، لكن ذلك لا يعني أنّ الاقتصاد العالمي سيخرج من هذه الأزمة سريعاً، أو من دون تكاليف باهظة، إلى جانب الخسائر الكبيرة لجميع أصناف المستثمرين، فإنّ الأموال التي ضُحّت

لإنقاذ المؤسسات المالية المهددة هي أموال دافعي الضرائب، مما قد أدى إلى ارتفاع عجز ميزانيات عدد من الدول، والانهيارات المالية، إلى جانب المستويات المرتفعة لأسعار الفائدة التي ستترك أثرها في عجلة الإنتاج والنمو الاقتصادي، إلى ارتفاع معدلات البطالة، وإلى تراجع الطلب على عدد متزايد من السلع.

إنّ وهم النمو الاقتصادي المستمر، والازدهار المتصل، الذي وعدت به الليبرالية الجديدة، قد وصل إلى نهايته، ولم يعد من منقذٍ سوى أداة الدولة، وليس هناك من يحمل عبء الإخفاق سوى دافعي الضرائب، ملايين العاملين من المواطنين العاديين^(١).

يقول توماس فريدمان: «إذا كنتم تريدون مثلاً وحيداً عن الطريقة التي رمتنا بها ديمقراطية التمويل في الأزمة المالية العالمية، والطريقة التي ستخرجنا بها من مأزقنا، يكفيكم النظر إلى الصحف البريطانية الأسبوع الماضي وعناوينها الرئيسية التي سلّطت الضوء على عدد المواطنين والبلديات والجامعات في بريطانيا، بما فيها جامعة كامبردج، الواقعين في حالة من الارتباك اليوم نتيجة لحسابات الادخار التي فتحوها لدى مصارف آيسلندية من خلال الخدمات المصرفية عبر الإنترنت، ولا سيما

١ - د. بشير موسى نافع: فشل الليبرالية الجديدة يستدعي البحث عن خيارات مختلفة، مجلة العصر.

Icesave.co.uk... إليكم ما أوصل أيسلندا إلى الأزمة التي تعاني منها اليوم:

في عام ٢٠٠٢م - تقريباً - بدأت أيسلندا بعملية لخصخصة المصارف المحلية، وبحسب ما جاء في صحيفة (وول ستريت جورنال) شهدت المصارف الثلاثة التي تشكّل الجزء الأكبر من النظام المصرفي في أيسلندا نمواً سريعاً بفضل الائتمانات السهلة المنال، وتضاعف إجمالي أصول هذه المصارف مجتمعةً عشر مرّات في غضون خمس سنوات، وفي حين أنّ المصارف الأيسلندية لم تكن معيّنة بالرهون العقارية الأمريكية ذات التصنيف الائتماني المنخفض، إلا أنها أسرفت في عمليات الاقتراض والإقراض، مُغريّة العملاء الراغبين في ادخار أموالهم في معظم أنحاء أوروبا بمعدّل فائدة يساوي ٤٥,٥% على حسابات الادخار... كما تعتمد العوامة إلى سحب كلّ المزايا التي قدّمته إلى العالم سابقاً، ذلك لأنّ ديمقراطية التمويل أدّت إلى انتقال عدوى الرهون العقارية الساقطة في الولايات المتحدة إلى سائر دول العالم، وعلى ضوء هذا الواقع، لم يعد أمامنا سوى الانتظار»^(١).

ويقول الدكتور السيد ياسين: «ما شهدناه في عصر العوامة من محاولات دائبة لإعادة صياغة الإيديولوجية الرأسمالية بعد انهيار الاتحاد

١- توماس فريدمان، المركز الدولي لدراسات أمريكا والغرب.

السوفييتي، وابتداع نظرية (الليبرالية الجديدة) التي تجاهد الولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص لكي تصبح هي الإيديولوجية السائدة في كلّ المجتمعات الإنسانية المعاصرة بلا استثناء، ونقطة البدء هي تصفية (دولة الرعاية الاجتماعية) Welfare State بأشكالها المتنوعة (الاشتراكية، والرأسمالية المهذّبة)، وتصفية نظرية (التخطيط الاشتراكي)، ونسف كلّ مشاريع القطاع العام من خلال برامج الخصخصة، وتحرير الاقتصاد، والتركيز على حرية السوق من خلال آلية العرض والطلب، وفتح الباب - نظرياً - أمام التنافس الحرّ الطليق للمواطنين في المجتمع. وقد أدت (الليبرالية الجديدة)، التي يمثلها خير تمثيل (منتدى دافوس) في مؤتمراته السنوية، إلى كوارث لا حدود لها لشعوب العالم النامي، نتيجة لاستبعادها من دورة الإنتاج الفعّال، وتحويلها إلى أسواق للشركات الرأسمالية الكبرى تحت رعاية (منظمة التجارة العالمية)، غير أنّ الليبرالية الجديدة قامت في مواجهتها حركات احتجاجية عالمية، وهكذا أصبح لدينا دافوس وضد دافوس، وهذه الحركات قنعت حتى الآن بالنقد العنيف لمقولات وممارسات الليبرالية الجديدة، غير أنه يبقى أمامها - كما دعا إلى ذلك آرنسون - أن تصوغ مشروعاً راديكالياً جديداً لتغيير العالم»^(١).

١- السيد ياسين: صعود وسقوط الإيديولوجيات السياسية،

على الرغم من أداء الاقتصاديات الرأسمالية الرئيسة في أمريكا وأوروبا الغربية، وازدهارها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى نهاية السبعينيات من القرن العشرين، فإنّ النظريات الاقتصادية قد برهنت في أوضاع الأزمة التي تصيب الرأسمالية من فترة إلى أخرى على إخفاقها كما قال رئيس الوزراء البريطاني تشرشل ذات مرة.

لقد حرصت (النظرية الكينزية) على إصلاح الرأسمالية لتجنّب انهيارها، ولذلك داست على بعض معتقداتها في سبيل البعض الآخر، وانتهكت حرمة معبودها - السوق - بإدخال الدولة في النشاط الاقتصادي كلاعب رئيس، وكردة فعل على النظرية الاقتصادية الكينزية جاءت أفكار مدرسة جانب العرض Supply Side Economics التي تربط كلّ أزمات الاقتصاد بـ «ارتفاع تكاليف الضرائب»، وقد سخر من هؤلاء (كروغمان) واصفاً إياهم بالفشل في التحليل الاقتصادي الكلي^(١).

وبحسب خبراء المال والاقتصاد؛ فإنّ الأسوأ لم يظهر بعد في الأزمة المالية الدولية، و ٩٠% من الضرر نتج عن سياسات مالية خاطئة، ومضاربات وفساد إداري، و ١٠% نتيجة العوامل الضعيفة في السوق،

<http://tarek1963.maktoobblog.com>

١ - تعليق على كتاب (تحليل النظريات الاقتصادية) بول كروجمان، موقع الجزيرة.

والأضرار والخسائر في العام المنصرم قاربت ألفي بليون دولار، ورقابة أربعمئة مليار دولار في الربع الأخير من هذه السنة، منها مائة وثمانون مليار دولار خسائر الأسواق الخليجية، والأسوأ لم يظهر بعد فشل النظرية الاقتصادية الليبرالية الرئيسة وتطبيقاتها، وغياب الرقابة وسطوة المضاربات ركزت النشاط الاقتصادي في جانب واحد من النشاط الاقتصادي على حساب الجوانب الأخرى الأكثر أهمية.

لقد دفع العالم ثمناً غالياً لنظريات تسليع وفتح الأسواق واجتياحها بدون ضوابط، وآن أوان العودة لشيء من الضوابط الوطنية والدولية على الحركة الاقتصادية، فلم يعد سليم القبول بالتوجهات الاقتصادية المنفلتة التي قامت أساساً على فرص أولويات أصحاب هذه النظريات وأجنداتهم واستثماراتهم ونتائج فشل سياساتهم على دول العالم بدون تدخل أو رقابة^(١).

هذا بالإضافة إلى أنّ واقع السوق الحرّ يثبت أنّ المصلحة تتجه نحو جيوب كهنة المال والاقتصاد، فالمال يُضَحّ في خزائن الذي يملكون التجربة والممارسة الاقتصادية، ورفع سلطة الدولة عن ضبط السوق مكّن كلّ محتال أن يلعب لعبته، وصار السوق غابة من وحوش تأكل كلّ ضعيف ساذج، أو صادق غرّ لا يعرف ولا يجب أن يعرف طرائق

١ - الأزمة المالية الأسوأ لم تظهر بعد، جريدة الرأي.

المكر والاحتيال.

وكون الفرد ينطلق من مصالحه الخاصة، بيعاً وشراءً، هذا لا علاقة له بصحة العملية بوجه، فالانتفاع عملية متبادلة بين البائع والمشتري، هذا صحيح، لكن هذا لا يمنع من التلاعب والاحتيال، ما لم يخضع لقانون، وحرص الفرد على مصلحته لا يرفع عنه الغفلة، كما لا يرفع عنه الخديعة، ما لم يجد قانوناً يحميه، أو قانوناً يردعه ويكفّه عن العبث، فهذا الذي يملك سلعة يحتكرها، فلا يبيعها، حتى إذا شحت في أيدي الناس، وزاد الطلب عليها، باعها بأعلى الأسعار، أليس يحقق مصلحته في البيع، ويحقق مصلحة المشتري حينها؟!

ثم في الليبرالية؛ ما مصير القيم الأخرى كالمساواة والعدالة والسعادة والتعاون؟! فإذا كانت الحرية هي القيمة العليا، فلا شك أنها ستعارض مع قيم كثيرة، ستعارض مع السعادة، فالفرد بدعوى الحرية سيفعل ما يشاء، ولو كان فيه شقاؤه، سيشرب الخمر، ويزني، ويخدع، ويحتال، وكلّ هذه آفات تقتل السعادة، يقرّ بذلك كلّ العقلاء، وحرية السوق أو السياسة تتعارض مع العدالة والمساواة.

فأين نجد المساواة في حكم ديمقراطي، الحكم فيه للأغلبية الغنية؟! وأين نجد العدالة في سوق حر، لا يعرف إلا الاحتيال والتلاعب، والدكي من يكسب أكثر؟!!

إن الحلّ الليبرالي قائم وسقيم، والغرب أكبر شاهد على هذا، فقد عاش في الحياة الليبرالية بالمفهوم الذي وُضع لها منذ أكثر من قرنين، وها هو ذا ينتقدها ويعارضها بعدما طحنت شعوبهم، فنشرت فيهم البطالة والفقر، والأمراض المهلكة، والمخدرات والخمر والزنا والشذوذ والإلحاد والجريمة، والغرب اليوم، ومن وراء الفكر الليبرالي، يصدر للعالم مشكلاته وجرائمه وعدوانه^(١).

ومع ذلك؛ فكلما اجتهد العلماء وخبراء الاقتصاد في بحث أفضل السبل لإنقاذ الاقتصاد العالمي وجدوا أنّ الحلّ الأمثل هو تخفيض فوائد البنوك لتصل إلى الصفر (أي إلغاء الربا)، وتثبيت الضرائب عند نسبة ٢,٥%، وهي قيمة الزكاة كما شرعها الله تعالى.

٢- الليبرالية والمرأة:

هذه شهادة واحد من مفكّري الغرب، وتحديدًا أمريكي، في بيان عوار الليبرالية في واحد من أخطر الميادين التي يصل فيها الليبراليون ويجولون، وهو ميدان المرأة، حيث أوضح المؤلّف الأمريكي المناهض للحركات النسائية (غاري نيلر)، الذي ألف كتاب (لعنة العام

١ - أبو سارة: نظرة في الليبرالية من الداخل، موقع ليبرالي.

١٩٢٠م)، أنّ المجتمع الأمريكي لم يكن من مشاركة المرأة سوى «تأكل القيم الأخلاقية والاجتماعية».

وبدا معجباً بثقافة السعوديين (المسلمين) تجاه المرأة، وأضاف في الحالة السعودية الأنظمة الدينية والاجتماعية، إضافة إلى الحقوق المدنية، تبدو أكثر انسجاماً من تلك الموجودة في أوروبا وأمريكا، فالصفات الأخلاقية والدينية للسعوديين أكثر اتساقاً وأفضل من حال مؤسسي الولايات المتحدة.

واستطرد معدداً الآثار المترتبة على توسيع المشاركة النسائية اقتصادياً: ارتفعت التكاليف الحكومية بشكل متسارع، بشكل صار يهدد الاقتصاد الأمريكي، مستنداً بدراسة أجراها قسم القانون في جامعة شيكاغو في هذا الجانب بعنوان (كيف أثر انتخاب المرأة بشكل متسارع في حجم ونطاق الحكومة).

وأضاف: أمّا اجتماعياً؛ فإنّ ثلاثة أرباع حالات الطلاق المنظورة في المحاكم الأمريكية تقدّمها نساء، بشكل يهدد الأمن المالي والتماسك الاجتماعي للأسر.

ويتساءل (نيلر) متعجباً عن شكل الفضيلة والأخلاق وضبط النفس والأمومة لدى النساء بعد حصولهنّ على حقّ المشاركة السياسية والمساواة في التعليم والتوظيف، بدلاً من الاهتمام بالمظهر والملابس!

وقال: لا يوجد تشابه بين المجتمعين السعودي والأمريكي، لكن هل أنتم مستعدون للتعامل مع الإحصاءات الأمريكية، إذ إنّ نسبة الطلاق تصل إلى ٥٣%، وعدد البيوت الزوجية التقليدية نحو ٥٠%.

ويواصل (نيلر) هجومه على الوضع الذي وصل إليه المجتمع الأمريكي بعد إعطاء المرأة حقها في التصويت، مشيراً إلى قضية الإجهاض التي بلغت أرقامها نحو ٣٥٠٠ حالة إجهاض يومياً في أمريكا وحدها، مرجعاً ذلك أيضاً إلى الحقوق أو (اللجنة) التي أعطيت للمرأة.

واختار أن يصف الحرية للمرأة الأمريكية بـ (المدمّرة)، إذ دمرت الأسرة الأمريكية، والأخلاق، وعدداً لا يُحصى من الأرواح (في إشارة إلى موضوع الإجهاض)، فضلاً عن زعزعة الاستقرار المالي، وغياب احترام القيم وقدسسية الزواج، والخلط بين الحقوق الشرعية السياسية للرجل والمرأة.

ويؤكد أنّ الأمهات من النساء لسن أبداً عاطلات، وأنّ المشكلة تكمن في عدم رؤية ما يؤدي إليه هذا الطريق، وتبعات إعطاء المرأة حقّها وحرّيتها في مشاركة الرجل.

حتى أصبحت أمريكا - بحسب وصف (نيلر) (الشیطان الأكبر)، الذي لا يمكنه العودة إلى أخلاق الآباء المؤسّسين والتوبة قبل إدراك هذه

الحقيقة، مبدئياً قلقه حول الوضع الحالي للمجتمع الأمريكي، ومعيداً تقديره وامتنانه للالتزام السعودي الراسخ والثابت بالثوابت الدينية والأخلاقية، وراجياً ألا يؤثر الغباء والحماقة والعمى الأمريكي في هذا الالتزام.

يُذكر أنّ (غارني نيلر) حاصل على درجة البكالوريوس في العلوم من جامعة تكساس للتقنية، وبدأ تناوله لقضايا الحركة النسائية في عام ١٩٩٤م، مصدراً كتابه الأول (لعنة العام ١٩٢٠م)، الذي يعد الأول من نوعه في مجال الحركات النسائية، مبيناً أنّ سبب توجهه لهذا المجال هو: تدمير هذه الحركة للأرواح والعائلات والمجتمعات والدين^(١).

كما جاءت (الليبرالية الجنسية) فألغت كلّ القيود، فنجد الصحافة الغربية، والأمريكية خصوصاً، مليئة بارتكاب كثير من المحرمات، فلم يعد الأب يتورّع عن نكاح ابنته نكاحاً مدنياً (غير كنسي)، ولم تعد الأخت تنظر إلى أخيها من منظور التحريم، ولا تنظر الأم إلى ولدها في ممارسة الجنس بمنظار المحرمات، وفي أمريكا منتديات يهودية مهمتها نقض

١ - حسام الغيلاني: مؤلف أميركي يدعو السعوديين لتحجيم مشاركة المرأة،

جريدة الحياة - ٢٤/٥/٢٠٠٨م.

http://ksa.daralhayat.com/local_news/riyadh/05-2008/Article-20080523-175d6692-c0a8-10ed-01e2-5c7313f2f766/story.html

الثوابت في ممارسة الجنس.

تنصّ القوانين الأوروبية جمعاء على أنّ الفتاة إذا بلغت ستة عشر عاماً فمن حقّها أنّ تتصرف في نفسها كما تشاء، وتُهب نفسها لمن تريد، وكم من أبٍ مسلمٍ في بريطانيا دخل السجن، لأنّه منع عشيق ابنته من دخول داره لممارسة الفحشاء، فشكته الابنة إلى الشرطة، فحُوكِم ونال الجزاء القانوني!

والسؤال الآن للذي يدعو لتحرير المرأة من قيد الشريعة الإسلامية - على حسب قوله -: كيف يحارب الوصاية الفكرية، وهو يخلصها من القيد ويرميها بوحل التغريب، كي تكون مسخاً للمرأة الغربية في طريقة التفكير وأسلوب الحياة؟! ولك أن تعجب عندما شتّوا حملة فكرية شعواء على الشيخ تاج الدين الهلالي مفتي أستراليا، على خلفية وصفه النساء العاريات بـ (اللحم المكشوف) في تصريح له، لأنّ هذا تعدٍّ على الآخر! لكنهم صمتوا صمت القبور على تصريح أحد وزراء الثقافة العرب ضد الحجاب، واعتبروه رأياً يدخل في حرية التعبير!

٣ - الليبرالية الجديدة وحقوق الإنسان:

إذا كانت الليبرالية الأولى نقلة نوعية - بالنسبة لأوروبا - في قضية حقوق الإنسان؛ فإنّ (الليبرالية الجديدة) انتكاسة حقيقية لحقوق

الإنسان، تحت سمع العالم وبصره، ليس الإنسان الغربي فحسب، بل الإنسان الشرقي والشمالي والجنوبي، حيث تُستخدم فيها القوة العسكرية لفرض الهيمنة والأفكار والتقاليد، في عصر ما يسمّى بالعملة، فلم تعد للحريات الإنسانية مكاناً، إلا الحريات التي تملّحها القوة الكبرى (أمريكا) بسيطرتها المحكمة على مراكز الأرض، براً وبحراً، من خلال قواعدها البرية، شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، وأساطيلها البحرية، متمثلة في حاملات الطائرات، التي تجوب بحار العالم، كقواعد عسكرية متنقلة، فكلّ مَنْ يخرج عن إرادة هذه القوة الكبرى فهو خارج عن القانون (إرهابي) أو (محور الشر)، فالقاعدة: «إمّا أن تكون معنا، وإمّا ضدنا»! ولا يملك العالم أمام هذه القوة العظيمة إلا الخنوع والإذعان لإرادتها، وتنفيذ كلّ ما يُطلب منها، وإلا كان مصيرها التأديب على يد (النظام الدولي) الذي تتمثّل أهم أركانه في: (هيئة الأمم المتحدة، مجلس الأمن الدولي، صندوق النقد الدولي، البنك الدولي، منظمة التجارة العالمية)، تحت شعارات مثل: (مكافحة الإرهاب، والقضاء على محور الشر).

ولعلّ هذه النتيجة القائمة لم تكن مفاجأة لمن تتبع مسار الفكرة، وعرف أسباب نشأتها، ومن الذي تولّى توجيهها، ورسم حدودها وخطتها، فما كانت إلا شعاراً أجوف المضمون، لم يكن يراد لنفسه، بل

لغيره، نعم كان هناك مخلصون للفكرة، ونادوا بصدق وإيمان تامّ، لكن لم يكن منهم إلا التقرير والتصوير، أمّا التوجيه وتولّي دقّة السير فكانت لغيرهم، ممن اقتنص الفرصة ليضرب ضربته في تحقيق أهدافه الخاصة، فركب موجة الليبرالية، ودعا إليها، وهو يعلم سلفاً أنّها ضارة غير نافعة، وأنّ نفعها بالنسبة للشعوب محدودة جداً، بل لا تقارن بمضارها، وفائدتها قاصرة على ذوي الأهداف الفاسدة الشريرة، وهم اليهود^(١).

وقد حاول النموذج الرأسمالي الصناعي في أثناء القرن العشرين التغلغل في الدول النامية في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، وخصوصاً أنّ التنمية الاجتماعية والسياسية تمّ تعريفها بالمنظور الاقتصادي الغربي المتمثل في نظرية التقدّم المادي، ولكن العديد من البلدان النامية قاومت الليبرالية لارتباطها بالنظم الاستعمارية من جهة، ولقوة الثقافة السياسية التقليدية في الدول حديثة الاستقلال التي تناصر الجماعية وليس الفردية؛ ولذلك كانت تربة خصبة لنمو الاشتراكية والقومية أكثر من الليبرالية الغربية.

١ - أبو سارة: نظرة في الليبرالية من الداخل، موقع ليبرالي.

٤ - شهادات مفكرى الغرب وعلمائه على إخفاق الليبرالية:

لم تكن الليبرالية محلّ إجماع بين المفكرين الغربيين، فقد رفضها (هوبز)، وعظّم من شأن سلطة الدولة، حتى أولئك الذين تبنّوا الفكرة - وهم الأكثرية - اضطربوا في تحديد نطاقها ورسم حدودها، بعد أن لمسوا كثيراً من الخلل في التطبيق.

فالحرية المطلقة - التي تدعو إليها الليبرالية - تتعارض مع قيم أخرى، كالعدالة والمساواة، بل حريات الآخرين، لذا فقد حاول (جون ستيوارت مل) أن يجد معادلة توفّق بين الليبرالية والديمقراطية، فلم يسمح بتقييد حرية فردٍ ما إلا لمنع ضرر واضح يلحق بالآخرين، نتيجة تصرف هذا الفرد، وقد ميّز (جون مل) بين الحيز الخاص والحيز العام، فأعطى الفرد حرية مطلقة في الحيز الأول، وسمح للدولة بأن تتدخل فقط فيما يتعلق بالحيز الثاني.

فهذا التقييد للحرية - بهذا التقسيم - يتنافى مع الحرية المطلقة والاستقلالية التامة، لكن الفكر الليبرالي أدرك أهمية هذا التقييد، وإلا فلن تكون الليبرالية حلاً صحيحاً، متلائماً مع حاجات الفرد قبل حاجات الجماعة، فحرية الفرد لا تصح أن تكون سبباً في شقاء الفرد الآخر، كما لا تصح أن تكون سبباً في إلغاء حرية الفرد الآخر، فما من حرية مطلقة يُنادى بها للفرد إلا وفيها إلغاء لحرية فرد آخر، فهذا الشعار

الجميل في مظهره، يحمل في تطبيقاته مشكلات كثيرة، شعر بها وعاش فيها دعاؤها وشعوب أوروبا، ولذا اضطروا، كما رأينا، إلى قيد (عدم الإضرار بالآخر).

لكن هذا القيد غير محدد، ويختلف من شخص إلى آخر، ومن أمة إلى أخرى، تماماً كما هو الحال في المقيد (الحرية)، وإذا كان هذا القيد مختصاً بالأفعال، فيمنع كل فعل يضرّ بالآخر، فليس من العقل إغفال قيد الأقوال، فالأقوال ربما لا تقلّ خطراً عن الأفعال، فكم من كلمة أشعلت فتنة وحراباً، فالحرية جميلة، والقيد لا بد منه، لكن الخلاف حول معنى (الحرية)، وحدّ (القيد) المحدّد للحرية.

وإذا كان الفكر الليبرالي يرى الحلّ الديمقراطي هو الأمثل والبديل المناسب للملكية القسرية؛ فإنّ التجربة الديمقراطية أثبتت أنها ليست إلاّ وجهاً جديداً للحكم الملكي الدكتاتوري، فالسلبات التي كانت تنشأ عن الحكم الملكي عادت في ظلّ حكم الأغلبية، فما الذي يمنع الأغلبية أن تمارس طغيانها الخاص، كما مارس الحكم الملكي طغيانه الخاص؟! والتجربة أثبتت أنّ رقابة المجتمع في ظلّ الديمقراطية لم تفد شيئاً ذا بال، فالمشكلات متفاقمة، والتلاعب مستمر، وإذا ذهب وجه ديمقراطي منتخب - بإسقاطه - لطغيانه، جاء آخر يمارس الدور نفسه، في حلقة مفرغة، ودورة مستمرة لا تنتهي!

وقد شعر بهذه المشكلة كبار الليبراليين والقانونيين، فقد أدرك (مل) أنّ مشكلة تسلط الملوك، وإن حُلّت تاريخياً بتجريدهم من صلاحياتهم أو بقطع رؤوسهم، تعود وتظهر بشكل طغيان الأكثرية أو من يمثلها في النظام الديمقراطي، والحلّ الدستوري (عبر القوانين، وإصلاح المؤسسات، وإنشاء المحاكم العليا، وتعدد الأكتريات من خلال النسق التعاقبي للانتخابات.. إلخ) لا يحلّ المشكلة كلياً، حتى لو تأكدنا أنّ الديمقراطية دستورية؛ يبقى الدستور وتقرير أحكامه في نهاية المطاف في يد الأكثرية. وقد أدرك توماس جيفرسون (١٧٤٣م - ١٨٢٦م) هذه الحقيقة قبل: ملّ، وتوكفيل، وتوماس جرين (١٨٣٦م - ١٨٨٢م)، وكونستانت، وغيرهم، ممن أدركوا طبيعة هذه المشكلة وأبعادها^(١).

يقول الشيخ حامد العلي: «لم يصدّق كاتب غربي في كشف حقيقة المذهب (الليبرالي) كما صدّق الكاتب الأمريكي RASSEL JACOBY؛ إذ وصفه قائلاً: إنه ليس فقط مفتقداً تراثاً كلاسيكياً واضحاً، بل مختلطاً أيضاً بالغموض والفضيحة، ثم نَقَلَ كلمة في غاية الدقة، عبّر بها أحد كبار مؤرخي فرنسا عن هذا المذهب: لقد كنا غير محظوظين، بشكل استثنائي، في اختيار هذا الشعار، ومن الصعب أن

١ - أبو سارة: نظرة في الليبرالية من الداخل، موقع ليبرالي

تجد شعاراً آخر أكثر ابتدالاً وأقلّ لياقة منه بالتأكيد، ليس ثمة شعار يمكن أن يكون نايياً وبلا دلالة مثله، شعار ذو أصل حديث مبتذل، لا علاقة له بأصل كلاسيكي، شعار بلا مستدعيات أدبية أو تاريخية، شعار مجرد تماماً من أي صدى ديني أو أخلاقي، شعار يمكن أن يعني التفكك وفق أهواء كل فرد، وكل مواطن يحمل في قلبه مصالح وطنه لا بد أن يأسف لسوء اختيار هذا الشعار الذي لا يلائم جمهورية عظيمة على الإطلاق»^(١).

يقول الخبير الفرنسي بشؤون الإسلام السياسي (أوليفيه روا): «عندما يكون على الغرب الاختيار بين العلمانية والديمقراطية، فهو يختار العلمانية دائماً، وعندما تكون العلمانية في كفة والديمقراطية في كفة، كما في الجزائر وتركيا، فالغرب يختار دائماً العلمانية لا الديمقراطية، الغرب يفضل قيام نظام تسلطي دكتاتوري على وصول الإسلاميين إلى السلطة»^(٢)!

كما تحدّث (إدوارد مانسفيلد) و (جاك سنايدر) عن فوز جبهة

١ - الشيخ حامد العلي: مصرع خرافة (الليبرالية) اللادينية، موقعه الشخصي

[www.h-alali.cc/m_index.php?start=300 - 33k](http://www.h-alali.cc/m_index.php?start=300-33k)

٢ - أبو راكان: «ليبرالي السعودية».. لم ينجح أحداً!، موقع صيد الفوائد

<http://www.saaaid.net/mktarat/almani/44.htm>

الإلغاف الجزائرية، وحزب الرفاه في تركيا وضرورة ضربهما، يقولان: «في كلتا الحالتين؛ كان لا بد من انتهاك المسار الديمقراطي، وذلك لإيقاف ما أسفرت عنه العملية الديمقراطية نفسها، فقد عبّر كثير من المراقبين والحكومات عن ارتياحهما لهذا، مسوِّغين ذلك بأنه من الأفضل وجود حكومة فاشية نستطيع التعامل معها، بدلاً من حكومة إسلامية لا نستطيع التعامل معها»^(١)!

يقول (مراد هوفمان): «إنّ الغرب يتسامح مع كلّ المعتقدات والمثل، حتى مع عبدة الشيطان، ولكنه لا يُظهر أيّ تسامح مع المسلمين، فكلّ شيء مسموح إلا أن تكون مسلماً!» ثم يأتيها من يقول: أنا ليبرالي مُسلم!، ويقول محمد أركون: «على الرغم من أني أحد الباحثين المسلمين المعتنقين للمنهج العلمي والنقد الراديكالي للظاهرة الدينية، إلا أنهم - أي الفرنسيين - يستمرون في النظر إليّ وكأنني مسلم تقليدي! فالمسلم في نظرهم - أي مسلم - شخص مرفوض، ومرمي في دائرة عقائده الغريبة، ودينه الخالص، وجهاده المقدّس، وقمعه للمرأة، وجهله بحقوق الإنسان وقيم الديمقراطية، ومعارضته الأزلية والجهوية للعلمنة، هذا هو المسلم، ولا يمكنه أن يكون إلا هكذا! والمتقف الموصوف بالمسلم يُشار إليه دائماً بضمير الغائب، فهو الأجنبي المزعج

١- أبو راكان: «ليبرالي السعودية».. لم ينجح أحداً، المصدر السابق

الذي لا يمكن تمثله أو هضمه في المجتمعات الأوروبية؛ لأنه يستعصي على كلّ تحديث أو حادثة»^(١)!

كذلك فإنّ أحداً لا يصدّق أمريكا، حتى الأمريكيين والأوروبيين، والمتعاطفين مع النموذج الأمريكي بين المثقفين العرب؛ فالمفكر الأمريكي (فوكوياما) صاحب نظرية (نخاية التاريخ) التي بشّر فيها بسيادة الليبرالية الغربية، يرى أنّ دعوة أمريكا إلى الديمقراطية تفتقر إلى المصداقية، والصحافي البريطاني (روبرت فيسك) يقول الشيء نفسه؛ مع إضافة أنّ أمريكا تدعم الطائفية وتمنع الديمقراطية في العراق؛ بل يقول: إنّ الغرب نفسه هو الذي منع التطور الديمقراطي في المنطقة؛ فبريطانيا مثلاً هي التي منعت بالقوة التطور الديمقراطي في مصر في الثلاثينيات من القرن الماضي.

وقد اكتشف الدكتور عبد المنعم سعيد، وهو مفكّر مصري وصحافي بالأهرام ورئيس مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، وهو مؤيد للنموذج الأمريكي وضد المقاومة ومع التطبيع، اكتشافاً أخيراً أنّ الاستثناء الأمريكي بخصوص الديمقراطية قد انتهى، وأنّ المدينة المضيفة على التلّ قد أصبحت معتمة، وأنّ هناك إيديولوجية شوفينية بدأت تترعرع في أمريكا نفسها.

١- أبو راكان: «ليبرالي السعودية».. لم ينجح أحداً، المصدر السابق.

الخاتمة

موقف الإسلام من الليبرالية

مفهوم الليبرالية، كما وضع في الغرب، يصطدم بالدين الإسلامي، بل الشرائع كافة، في أصول لا يُستهان بها، كاستبدال الحكم البشري بالحكم الإلهي، فيما يُسمّى (الديمقراطية)، وكذا الحرية المطلقة في الاعتقادات بالتغيير والتبديل، وذلك لأنّ نشأة الليبرالية في أوروبا كانت ردّ فعل عنيف ومدّمّر على انتهاك بيّن لقيمة الإنسان، باسم الدين والإقطاع والملكية، هذا الثالوث الذي حطّم كرامة الإنسان الغربي، فلم يبق فيه مساحة لأدنى حرية.

كما أنه مذهب اخترعه ملاحدة أوروبا، في عصر انتشار اللادينية، بعد الثورة على الكنسية النصرانية المشتركة، ويزعم مخترعوه أنّ قطب رحاه هو الحرية، أيّاها يعبدون، ولها يركعون ويسجدون، وعجباً لأمر هذه الحرية الزائفة التي يطالب بها من يُطلقون على أنفسهم (الليبراليون) في كلّ مكان من العالم! فكأنّ هذا المذهب يقول للناس: كونوا عبيداً لأهوائكم، فإنه لا خالق لكم، أو إنّ خالقكم خلّقكم عبثاً لا ليأمركم وينهاكم، فكلّ يرى ما يرى، ويقول ما يقول، ويعتقد ما يعتقد، ويحلّ ما يحلّ، ويحرّم ما يحرم، عيشوا أيّها الناس في هرج ومرج، ازنوا، واسكروا، وامشوا عراة، وارقصوا...! لذا قال تعالى في أمثال هؤلاء: ﴿يَلْكَدُوبُوا

بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ [ق:٥]، فالحق هو العبودية للخالق، والأمر المريج هو (الليبرالية) بعينها^(١).

فالليبرالية بُنيت أركانها على الإعراض عن شريعة الله تعالى، والكفر بما أنزل الله تعالى، والصدّ عن سبيله، ومحاربة المصلحين، وتشجيع المنكرات الأخلاقية، والضلالات الفكرية، تحت ذريعة الحرية الزائفة، والتي هي في حقيقتها طاعة للشيطان وعبودية له .

يقول الشيخ الفوزان - حفظه الله - في فتواه المشهورة عن الليبرالية: «إِنَّ المسلم هو المستسلم لله بالتوحيد، المنقاد له بالطاعة، البريء من الشرك وأهله، فالذي يريد الحرية التي لا ضابط لها إلا القانون الوضعي؛ هذا متمرد على شرع الله، يريد حكم الجاهلية، وحكم الطاغوت، فلا يكون مسلماً، والذي يُنكر ما عُلم من الدين بالضرورة؛ من الفرق بين المسلم والكافر، ويريد الحرية التي لا تخضع لقيود الشريعة، ويُنكر الأحكام الشرعية؛ من الأحكام الشرعية الخاصة بالمرأة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومشروعية الجهاد في سبيل الله، هذا قد ارتكب عدة نواقض من نواقض الإسلام، نسأل الله العافية! والذي يقول إنه (مسلم ليبرالي) متناقض إذا أريد بالليبرالية ما ذُكر، فعليه أن

١ - الشيخ حامد العلي: مصرع خرافة (الليبرالية) اللادينية: موقعه الشخصي:

يتوب إلى الله من هذه الأفكار؛ ليكون مسلماً حقاً...

وأما العلماني والليبرالي، وما أشبههما، فهي أسماء جديدة، ولكن ليست العبرة بألفاظها وإنما العبرة بمعانيها وما تعبّر عنه، فما كان منها يتضمن ما تضمنته الأسماء الشرعية المذكورة فإنه يعطى حكمه الشرعي، ومنه الكفر، والكفر قد يكون بالاعتقاد أو القول أو الفعل أو الشك، كما ذكر ذلك أهل العلم في نواقض الإسلام وفي باب حكم المرتد من كتب الفقه»^(١).

وفي إجابته عن سؤال عن حكم الليبرالية قال الدكتور سعيد بن ناصر الغامدي - تكملة لكلامه السابق عن الليبرالية واتجاهاتها -: «هذه جملة من المفاهيم والمعتقدات الليبرالية، والمتفحص لها يجد أنها لا تخالف الإسلام فقط بل تقف ضده بشراسة، وتعتبره وأهله والداعين إليه والمدافعين عنه عناصر ظلم وظلام وتحلّف ورجعية، وتصوّر هذا كاف في معرفة حكم الليبرالية، ألم يستحق إبليس وصف الكفر ونار الخلد برّده على الله أمراً واحداً؛ فكيف بمن يرد جملة ضخمة من أحكام الدين بل من نصوص القرآن العظيم؟!»^(٢).

١ - الشيخ صالح بن فوزان الفوزان عضو هيئة كبار العلماء في فتواه المشهورة عن الليبرالية.

٢ - الدكتور سعيد بن ناصر الغامدي - مصدر سابق.

الفهرس

المقدمة.....	٢
المبحث الأول: تعريف الليبرالية.....	٥
المبحث الثاني: نشأة الليبرالية.....	١٢
المبحث الثالث: مراحل الليبرالية.....	٢٧
المبحث الرابع: الليبرالية في بلادنا العربية.....	٣٢
المبحث الخامس: دور الليبرالية في محاربة الإسلام.....	٥٠
المبحث السادس: تهافت الليبرالية.....	٦٢
الخاتمة: موقف الإسلام من الليبرالية.....	٨٦
الفهرس.....	٨٩